

عين تراقب العصفور

في أدبيات الفقد والحُدا والحمد



ملاك الجهني

عين تراقب المُصَفِّر

دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٥ هـ

ح

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجهني، ملاك.

عين تراقب التصفُّور. / ملاك الجهني. - ط ١. -
الرياض، ١٤٤٥ هـ

٢٠٠ ص ١ المقاس ١٤ × ٢١ سم

ردمك: ٦-٥٢-٦-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

١- الفلسفة أ. العنوان

ديري ١٠٠ ١٤٤٥/١١٧٩

رقم الإيداع: ١٤٤٥/١١٧٩

ردمك: ٦-٥٢-٦-٨٤٠٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ = ٢٠٢٣ م

Copyright © 2023 by ADAB

جميع الحقوق محفوظة لـ:

دار أدب للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية-الرياض



info@adab.com adab.com @adab

الآراء الواردة في الكتاب
لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

إليه..

مرة أخرى..

ملاك

فهرس

إهداء	٥
شكر وعرفان	٩
شُرقة.. لماذا أكتب؟	١١
قبل الفقد	١٧
الجسد المسكون بالموت	١٩
وتهاوى كل شيء...!	٢٥
هيفاؤنا، الحياة تنبعث من جديد	٣٣
أمي.. فجر الرحيل	٣٧
الجائحة.. وقلق العدوى	٤٣
الأرق السابق للوفاة.. ورافته بي وهو بعيد	٤٧
المهاتفة الأخيرة!	٤٩
لحظة الفقد/ البشر	٥٥
صدمة الفقد ووحشته	٥٧
الجسد الغريب	٦٣
برزخ بين حياتين	٦٧
اغتراب	٦٩
الحداد.. فرض النيان	٧٣

سلطان الاعتياد وعذابات	٧٧
حنين الأمكنة	٨٥
تعجيلات الفقد.. ووسائل التواصل	٩٥
ذاكرة انتقائية، الجانب المخفي للفقد	٩٩
جُب الكتاب، الاضطرابات الصحية اللاحقة	١٠٩
شفقة.. الإحساس المرير	١١٥
وهم الحياة الجديدة	١٢١
ملاذات الفقد	١٢٥
مرافق الذاكرة: الوجود والفقد في كتابات الزوجات	١٢٧
بين كونية الفقد وخصوصيته: جوان وجون ديديون	١٣١
هدمات الحب وتهديدات الفقد: عبلة الرويني وأمل دنقل	١٤٣
سرّ مقدس: غادة السمان ويشير الداعوق	١٤٩
مطرقة النسيان: سعاد وعمر أبو ريشة	١٥٥
البحث عن خيانة: هنرييت عبودي وجورج طرايشي	١٥٩
اليَدُ الفارغة: سوزان وطه حسين	١٧١
فلسفة النفس الواحدة: عائشة عبد الرحمن وأمين الخولي	١٨٧
سؤال المعنى في حضرة الفقد: بين جوان ديديون	
وعائشة عبد الرحمن	١٩٧
نهايات	٢٠٥

شكر وعرفان

أود التقدم بالشكر الجزيل إلى كل من أسهم في خروج هذا
الكتاب إلى الضوء،

وأخص بالشكر الأديب الأستاذ فهد المطيري
لمراجعته مخطوطة الكتاب وسخائه منقطع النظير.

كما أشكر الكريم

الدكتور عبد الله السفياني

ودار أدب

لما قدموه من عون انتهى بوصول الكتاب إلى أيدي القراء.

ملاك

شُرفة .. لماذا أكتب؟

إن للكتابة نفسها قيمتها؛
فهي تهدئني
وتقع بردًا وسلامًا على قلبي
وتوقظ عاداتي القديمة، عادات الكاتب
وتوجه ذكرياتي وأحلامي
نحو العمل، نحو الفعل.
دوستوفسكي

أكتب هذه الصفحات لحاجتي للاستشفاء بالكتابة، ووفاء لذكرى
فقيدي، وتسجيلاً لتجربة امرأة مثلي من الطبقة الوسطى، كيف دهمها
الفقد، وكيف نهضت من حضيضه، وسارت في دروب التعافي من
أوجاعه.

أكتب للموجوعات والمكرومات مثلاتي، ممن يسندن رؤوسهن إلى
الفراغ طلبًا للنسيان، فالأنس بالشيء في الحزن أنسٌ وعزاء.
للسلوى أكتب، ولاستنشاق عبير الماضي أكتب، ولتعدي صمت
النساء المزمّن أكتب.

أملأ رثتي بالهواء النقي كلما سطرْتُ كلمة في صفحاتي، وتصطكُ
ضلوعي كلما ضاقت قدرتي عن البوح والإفصاح؛ ففي داخل كل
محزون حاجتان تصطرعان، حاجة للبوح، للتكشف، للتجلي،
وحاجة للانزواء والكتمان والانمحاء.. نعم الانمحاء! «فزمّن الكتابة

زمن القتل؛ زمن الانتحار لما أباح العاشق دمه بالبوح^(١).

شرعتُ في كتابة هذا الكتاب بُعيد السنة الأولى لفقد زوجي المهندس إبراهيم شتيوي الجهني (١٩٧١-٢٠٢٠م) رحمه الله، بعد ستة وعشرين عامًا من زواجنا، وعنوانُ للملف الذي خصصته له به (مسودة أفكار متناثرة حول الفقد وإبراهيم) وكنت أميل في هذا اللون من الكتابة إلى الأسلوب المرسل لفورته وصدقته، وتحاشيت السقوط في فخ الكتابة الأكاديمية بنسيجها المعقد، لكنني لم أنجح بتاتًا في التخلص من الباحثة الناقدة القابعة داخلي، فتقسيم الفصول والإحالة على الصفحات التي قرأت، ومناقشة بعض أفكار الكاتبات ورؤاهن الكلية للوجود، أو حتى تحويل التساؤلات العادية إلى فرضيات والتعامل معها على هذا الأساس، كل هذه الأمور كانت تصبح كتابتي بتلقائية، لذا تركتها تجري على سجيبتها هي أيضًا، وما كنت لأهرب من تنميط لأقع في تنميط آخر، فالتلقائية لا تعني السطحية، ولا التضحية بطريقتنا في التفكير طلبًا للتلبس بالأسلوب العفوي.

ولم أكتب في البداية سوى ملحوظات يسيرة مبعثرة، وأخرى قصيرة بالغة التكثيف عن شجن الفقد ووحشته واختلاجاته؛ فلم تكن لدي خطة مسبقة للكتاب، ولا تنظيم معين أسير عليه، وقد نظم الكتاب نفسه بنفسه لاحقًا عندما لاحظت أن ما كتبت قابلاً للتصنيف تحت قسمة رباعية، أما في البداية فقد كتبت تُفًا هنا وهناك أشبه بالجداريات، لكنني لم أتمكن مطلقًا من الكتابة عن سرديّة فقدته، كان الأمر أعقد مما ظننت، أنا التي تعودت الكتابة لصفحات دون أن أتعثر بكلمة أو فكرة، لقد شق علي

(١) قراءة تحليلية لرواية رسالة من مجهولة، ستيفان زفاينغ، كتب القراء العادل خضر والحفت

بالترجمة المنشورة لها، ص ٧٢.

من مقاتلي بيعث ذكرى تلك الفاجعة مجددًا، لكنني تحاملت على
وجعي وكتبت، وكنت أعلم أنها الوسيلة المثلى للتشافي، فقد اعتدت
منذ صباي على الكتابة إذا ما وقعت فريسة لألم أو قلق، وكانت الكتابة
تجلي المشهد أمامي، وتكشف لي ما يعتريني مما يصعب عليّ تفسيره
أو يحول دون فهمي لطبيعة الموقف الذي أواجهه، كانت الكتابة تعالج
فوضاي، ترتبني، وتضع عني أثقالاً كادت أن تقصم ظهري، كانت ببساطة
تريحني. لكن عزمي خذلني عندما بدأت الكتابة، فكنت أكتب عدة سطور
فتيسر أصابعي وأختنق بكلماتي، ولم يتجاوز ما كتبت في السنة الأولى
لفقده رحمه الله أربع صفحات. لكنها كانت الصفحات الأكثر إيلافاً،
الصفحات التي ضمت الجزء الأوجع من سرديّة الفقد. كتبها وسقطت
بعدها واهنة، فقد امتصّ سردها طاقتي على المواصلة، وأمسكتُ بعدها
عن الكتابة زمناً رافقه بقلبي.

وبعد مضي عامين من ذلك الوقت عدت إلى الكتابة مرة أخرى، فقد
بقيت عالقة في سرديّة لم تكتمل، ومقبلة بذكريات تستبيني في الماضي
وتشدني إليه بكل ما في التذكر من قوة، فظللت سجينته ولم أغادره
للحظة، ولم يك هناك بُد من تحريره وتحرير نفسي من قبضته، ورغم
أنني حاولت الفرار من أمره تارات عديدة فقد أدركت أخيراً أنني لن
أتمكن من مغادرته كلياً، وسيبقى جزء مني مشدوداً إليه ما بقي لي من
عمر، وبقيت على قيد التذكر.

وكان عليّ فقط أن أنتظر لبعض الوقت لأكتب عنه، وكما تقول إيزابيل
الليندي: «من الصعب أن تكتب وأنت في منتصف العاصفة، لذا من الأفضل
أن تعيد القصة من جديد بعدما تمر الرياح العنيفة، وبإمكانك أن تخرج

بعض المعاني من الحطام. الصراع، والفقد، والاضطراب، والذاكرة، هي المواد الخام لكتاباتي»^(١). ومثل إيزابيل كانت الذاكرة وما يخلج فيها من أحداث، وضحكات، وتحديات، وانكسارات، وانتصارات، وهزائم، هي المواد الخام لكتاباتي ومن ورائها النظرة إلى العالم، وكما يقول دان وود: «كل شخص لديه أنطولوجيا مضمرة توجهه في هذا العالم»^(٢).

ولا يسبقن لقلبك أيها القارئ أنني وزوجي شخصان خارقان للعادة، أو مذهلا المزاياء، أو باهرا الجمال، أو منزهان عن العيوب والخطايا، أو أننا كنا نعيش حياة تنسم بالاستشارة الوجدانية الدائمة، وتخلو من المكدرات والخلاف. فما نحن إلا شخصين عاديين لو صادفتهما لما ميزت وجهيهما من بين الوجوه، لكنه الحب والاحترام والإيثار المتبادل، ذاك ما كان يلون حياتنا ويمنحها القدرة على الصمود والتماسك أمام عوادي الزمن وقتلة الحب، من الرتبة، والملل، وطول العهد.

ثم إن الحب إذا اجتاح قلبًا وتمكن منه، وهب صاحبه عينًا ليست من عيون الآخرين في شيء، فالمحب يسمو بمحبوبه حتى ليُخيّل إلى غيره أن لا شبيه لمحبوبه في الحسن ظاهرًا وباطنًا، والحق أن المرء إذا أحب لم يعد يخضع للمعايير السائدة، إذ يغدو من يحبه المعيار ذاته، وكما قال الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لبشيرة محبوبة شاعرها جميل، حين دخلت على ابن مروان، فقال: (يا بشيرة ما أرى شيئًا مما يقول جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين، إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك!)^(٣).

(١) شهراد أمريكا اللاتينية نزهة في أهم اعترافات إيزابيل الليندي، إعداد وترجمة: عبد الله الرمائي، ص ٤٠.

(2) See: Epistemic Decolonization, p59-65.

(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين الأبهلي، ج ١/ ص ٤٠٦.

وربما يواسي امرأة مهجورة أو يُشيع غرور بعض الزوجات أن تبدو أمام الآخرين في صورة المحبوبة الفاتنة أو المعشوقة الأبدية في عين زوجها، وأن تُباهي بهذه الصورة المتألقة والساطعة كنجمة على مدى سنوات لم يسلبها فيها الزمن شيئاً من بريقها، لكن هذا لا ينطبق على كاتبة هذه السطور، فمع إبراهيم لم يكن لي أن أشعر بالفاقة، ولا قاتق الانصراف والتخلي، لأعوض عن ذلك الافتقار والمخاوف بسلوك استعراضي يائس بعد رحيله، على طريقة ثري أفلس فأخذ يواسي نفسه بالتباهي بثرائه الزائل، فعلى خلاف هذا، إن ساغ لي أن أقيم نفسي، فأعترف أنني إنسانة لا تميز عن غيرها بكبير فارق، وإنما هي خصوصية قلبه السخي ما جعلت من خصالي مناقب، ومن أفعالي صنائع بالغة الحسن، وأناحت لحيبي أن ينمو ويتزعرع، ويخضر ويزهر، ويتشعب ويمتد، حتى يبلغ عنان السماء.

وقد جرت عادة الزوجات أن يكتبن عن أزواج ذوي شخصيات هامة، ساسة، أو أدباء، أو فلاسفة، أو مفكرين...، فما الذي يميز فقيدي لأكتب عنه، والواقع أنني لا أرمي لكتابة سيرة غيرية، ولا مذكرات شخصية عن الفقد تحتفي بالجانب العاطفي للفقد وتختزله فيه وحده لا غيراً فالفقد بالنسبة لي تجربة إنسانية مركبة ومتعددة الأبعاد، وكل ما أحاوله هنا هو رصد وتحليل تجربتي على ضوء المكانة التي احتلها فقيدي، والأثر الذي تركه في القلب والروح والعقل.

لذا فهذه الصفحات ليست رثائية محضة، وليست ذاتية مجردة، وليست موضوعية خالصة، بل فيها من هذا وذاك... في هذه الصفحات خيوط من نور، ولفيف من أحاديث الوجد والفقد والحداد والحمد، تشبك ببعضها البعض، ويظهر كل منها في نسيج الكتابة من أوله وحتى آخره.

وأما عنوان الكتاب فمستلهم من الكلمة التي ختمت بها جوان ديديون كتابها حول تجربة الفقد، مع اختلاف يسير لكنه فارق ومؤثر؛ ذلك أن جوان كانت تنفي وجود عين تراقب العصفور، وتنفي معها العناية الإلهية إجمالاً وبمن فقد عزيزاً بصورة خاصة، وعلى العكس من ذلك، لم يغب عني للحظة، بل ولا لثانية، ولا أقل، أن هناك عين تراقب العصفور رغم مرارة المعاناة، كما سيبتين في سرد تجربتي في الفقد وتحليلها، وتعليقاتي الحوارية على كتابات الزوجات بعد الفقد، وكما في آخر موضوعات الكتاب الذي يدور حول سؤال المعنى في حضرة الفقد.

ملاك

محرم ١٤٤٥ هـ - يوليو ٢٠٢٣

قبل الفقد

الجسد المسكون بالموت

إننا نموتُ بشكل متجزئ
نموتُ الفرح، نموتُ الذاكرة،
تنعني الأشواق، نشيخ بسرعة
وبشكل مذهل،
شيء ما في داخلنا يتأكل يوميًا
ولا نشعر.

واسيني الأعرج

هكذا نحن، نتجاوب بطرق متفاوتة مع حُرقة الحزن، وتختلف قابليتنا
للاكتواء به ودرجة هذا الاكتواء، وصحيح أننا معرضون جميعًا لبواعث
الحزن لكن استعداداتنا وخبراتنا السابقة تؤثر عمقًا وسعةً وزمنًا في
تعاملنا مع آلامه.

وكانت قابليتي للحزن كبيرة جدًّا، فقد فقدتُ جنيني الأول في السنة
الأولى من زواجي، بعد ثلاثة أشهر من الحمل وأنا في الثامنة عشرة من
عمري، ثم حملت مرة أخرى وتوفيت ابنتي قبل ولادتها بأيام، وكنت
حينها في التاسعة عشرة من عمري، وفقدت بعدها حملين آخرين لثلاثة
أشهر، وثلاثة أشهر ونصف من بدء الحمل، ومنذ ذلك الحين سكتني
شعور موحش بأنني أرض يباب لا مكان للحياة فيها، ومجرد تصور أن
الموت زارني ذات ليلة وأن ابنتي قُبضت في بطني بعد تسعة أشهر من
حملي بها ملأني بالخوف.

كنتُ جدًّا عبر الموت مرارًا، جدًّا غير قابل للإنبات الأحياء،

وحلهي بأسباب فقد أجتني عزز لدي هذا الشعور الموحش، فلا سباب غير معروفة فقدتهم، وولدت ابتي ميتة لأنها كانت بلا عظام جمجمة، وجاءت كذلك لسبب أجهله أيضًا، وكنت أترقب ولادتها في مطلع شهر شوال، وكان علي أن ابتاع ثيابا للعيد الذي افترضت أنني سأستقبله وأنا حامل ففعلت وأحسنت الاستعداد له، لكن القدر لم يمهلني حتى ترائي الهلال، وفي نهار السادس والعشرين من رمضان استيقظت على ألم شديد في جنبي، وذهب بي زوجي إلى المستشفى، وقرر الأطباء إعطائي محرضًا للولادة دون أن يذكروا السبب، وكنت قبلها بأيام قليلة قد زرت أهلي وحثني أمي على زيارة الطبيب في مستوصف قوى الأمن القريب من منزلهم، فتعجبت لطلبها وذكرتها بأنني أراجع طبيبي الخاصة بانتظام وكل شيء على ما يرام، لكنها كشفت لي عن قلقها لكبر حجم بطني بالنسبة لفتاة في مثل عمري، وألحّت أمي راجية مني الذهاب معها إلى المستوصف للاطمئنان لا غير، فليت طلبها وذهبت، وفحصني الطبيب، وكانت أمي تتحدث إليه وأنا أجيب على أسئلته، وبعد أن أتم الفحص بالأشعة الصوتية قال لي وأنا على سرير الفحص: «مثلما قالوا لكم!» فتعجبت أنا وأمي، وسألناه في وقت واحد مدهوشتين: ماذا تعني بمثل ما قالوا لكم؟! قال: البنت بلا عظام جمجمة! وحين نطق بكلمة (بنت) رقق قلبي وشعرت بحنان دافق يفيض ويغمرني، فقد كنت أرفض معرفة جس الجنين طيلة أشهر حملي لتلا أسد معاجاة قدومه، وسألت الطبيب بسداجة؟ هل ستميش؟ فأجابني بشرة المتذمر: «لا طبعًا، وإن ولدت حية فلحطات وتموت!»

كان الطبيب يتحدث إلينا بنفاد صبر، وبفسوة لم أصادفها قبلًا، وكأنه كان غاصبًا لأمر ما سبق دخولنا عليه، أو ظن أننا نعلم مسبقًا بوضع الجنين

وجئنا لامتحان مهاراته فحسب، ورغم قسوته تلك فقد ألهمني ربي لحظتها قول: «الحمد لله». وأقول ألهمني لأنني لم أدر حتى اللحظة كيف حمدت الله على مصاب صادم كهذا! أعني أنني لم أختبر موقفًا كهذا من قبل، ولم أستعد له، ولم أكن متشعبة عمليًا بفكرة الإيمان بالقضاء والقدر بعد، وكنت مرهفة ومحبة للأطفال حتى أنني أصفت لقائمة طلباتي من إحدى مجلات الأزياء اللندنية في فترة الخطبة بعض المستلزمات والإكسسوارات الخاصة بالمواليد، ووبختني أمي وقتها.

وعودًا لذلك المشهد في عيادة الطبيب الذي غرز الحزن في أعماقي، أخذت أمي تستفسر من الطبيب عن كيفية التعامل مع حالتي التي رثق خبرها كزيت ساخن في وجوهنا، فأجابها أن لا بد من إجراء عملية وعدم الاستمرار في الحمل وانتظار حدوث مضاعفات، فرفضتُ الفكرة تمامًا، فلا يمكن أن أتخلى عن ابنتي أو أجازف بأي إجراء طلبًا لسلامتي على حسابها، وإن كانت سترحل في آخر الأمر فلترحل من تلقاء نفسها وفي الوقت المقدر لها، لا بيدي، لكن الخيار لم يكن لي، إذ لم ألبث أيامًا قلائل إلا وهجمت عليَّ الأوجاع بغتة، فذهبت إلى المستشفى وكان ما كان، وأنجبتها ليلة السابع والعشرين من رمضان في فصل شتاء قارس البرودة، وزمجرة الرعد تلك الليلة تخترق زجاج النوافذ، والرياح تضرب الأشجار والأحجار، والسماء تمطر بشدة في الخارج، وأنا ما بين آلام طلق أحترها لأول مرة في حياتي ودعوات يلهج بها لساني أن يكون كل ما ذكره الطبيب عن ابنتي تشخيصًا خاطئًا وأن يسلمها الله لي، ولم أكن أعلم لحظة استلامي لآلام الولادة وآمالي الكبيرة باحتضان مولودتي أنها كانت قد توفيت في رحمي منذ يومين؛ إذ توصلت أمي إلى الأطباء الذين اجتمعوا حولي وقتها ألا يخبروني بموتها.

والأوجع من هذا كله أنني حين فتحت عيني بعد خروجي من غرفة الولادة وسألتُ عن مولودتي صارحتني أمي بالحقيقة، فرجوتها بصوت أوهنه الألم والضراعة: أريد أن أراها وأمسها وأشمها، فأخبرتني أمي أنها دُفنت، وحدث كل هذا بترتيب بين أهلي وزوجي خوفاً علي من حزن يرافقني بعد الولادة وعزوفي عن الإنجاب إن أنا رأيتها، ولما زارني أبي وزوجي في المستشفى وأخبرني أبي أنه سماها (رحمة) رَقَّ قلبي رقة على رفته السابقة، وهالني أنهم حرموني حقاً ما كان لهم أن يحرموني بهال، فبكيت.. وبكيت طيلة الأيام التي تلت ولادتي، وكنت أبكي ووجهي للجدار، ولا أسمع لأحد أن يسمع نحيلي أو يبصر وجهي لشعوري بانتهاك حقي برؤيتها، فوحدي من سُلبت حياة كانت تنمو بين جنبيها، ووحدي من كانت تأنس بحركة جنينها وتهمس له وتخليله وتحصي الأيام المتبقية على قدومه للعنينا، ووحدي من ذقت فقد ذلك كله دفعة واحدة، لتستلقي على سرير ولادة بلا مهد بجانبها، ولا رضيع يجاذبها السهر.. ووحدي فقط من كان عليها معالجة آلام احتقان الحليب في صدرها، حليب مولودتها الميتة!

كنت أوري أوجاعي بالاستدارة ناحية الجدار وأستحفي بدموعي شاصرة بخذلان من غيوا عني وجه طفلي في التراب، لكن حزني كان يملؤني ويطفو على ملامحي، وكانت أمي تحاول بكل طريقة التسرية عني، لكنها كانت تخفق رغم اجتهداتها، ففي سبيل جعلي أنسى، لم تكن تذكر ابنتي أمامي باسمها (رحمة) وكأنها كائن بلا اسم ولا وجود، ولا قيمة واقعية ولا رمزية في حياتي، وما كان تنكيرها بتسميتها (بنت) أو الحديث عنها بضمير الغائب لينسيني إياها، فما كانت تتعجله أمي ثوى داخلي طيلة حياتي.

ومع ذلك فلم يحجب حزني عني قلقٌ أُمِّي وتألمها لأُمِّي، ورغبتها
أن أتخطى فقدي، وأواصل دربي ما دمت في مقتبل عمري وكامل عافيتي
والحياة تفور بين يدي.

وقد خشيت أُمِّي إصابتي باكتئاب ما بعد الولادة، وكانت تصنع لي
التليينة^(١) وترجوني أن أشربها، فأتجرعها إكرامًا لرجائها، ولأجلها فقط
تحاملتُ على نفسي عندما حلّ العيد بعد ولادتي بثلاثة أيام، ونهضت
من فراشي لأتزين وأرئدي ثيابًا جديدة، لكن وزني كان قد زاد أثناء
الحمل، ولم تعد ثيابي قبل الحمل تلائمني، وولادتي حدثت فجأة ولم
يسمني الاستعداد لما طوته من مفاجآت، ولم أجد أمامي وقتها إلا ملابس
الحمل التي ظننت حين ابتعتها أن العيد سيهل علينا وأنا لم أنجب بعد،
وعندما بادرت بالتجهز لاستقبال القادمين للمعايدة، إرضاء لأُمِّي وتطمينًا
لمخاطرها، وارتديت ملابسِي ونظرت إلى نفسي في المرأة، أبصرت خواء
الملابس جهة بطني المتفخ سابقًا، وشعرت بخواء مثله داخلي، كنا
متناغمين، وكان مظهري بتلك الملابس يحكي خوائي الداخلي.

(١) شراب ورد في السنة النبوية للمحروود

وتهاوى كل شيء ...!

هذا ما يجب أن تعرفه عن الأشياء

إنها لتدأى .. كما تفعل عادةً

وكما ستفعل دائماً

جُملت طبيعتها على ذلك

ألي صبيث

بترك الفقد وشومه الداكنة فيمن يعبرهم، وكما أن الوشم يحرق الموشوم لحظة وشمه، ثم لا يلبث ألمه أن يزول، فينسى صاحبه أنه قد وُشم، حتى يبصر وشمه ماثلاً أمام عينيه، كذلك يفعل الفقد في صاحبه، يلذعه بحرارته، ثم يتلاشى شعوره بالآلم تدريجياً، حتى ليكاد ينسى مصابه، فإذا بأول موقف يصادفه يذكره -بوحشية لا مثيل لها- أنه موشوم بالفقد.

وكنت قبل فقداني المتكرر لأجتي فتاة تحتفل بالحياة، ولا ينقصها المزم والتطلع والتحدي، أو هكذا بدا لي؛ إذ كنت تلمبذة مجتهدة في طفولتي وظللت كذلك حتى تخرجي من المرحلة الثانوية، وإن كنت أفسر بواعث تفوقي آنذاك بأمرين، أحدهما أنني لم أدخل الروضة كبقية إخوتي، بل سُجلت مباشرة في الصف الأول الابتدائي، ولا أدري أكان من سوء حظي أم حسنه أنني وضعت عند توزيع الطالبات على الفصول عند معلمة لا ترحم، ولا تضع العصا من يدها، وما زلت أذكر شكل تلك العصا الخشبية وتموجاتها، وكنت أشعر برعشة خفية كلما شاهدت الصندوق الخشبي للطماطم عند جلب الخضروات لبيتنا، فقد بدت لي

تلك العصا وكأنها منتزعة من الصندوق نفسه، ولما كنت الطفلة الأولى بعد ثلاثة ذكور واحتفى بي جدي لأبي وأمي -رحمهم الله جميعاً- والعائلة كلها، فقد كنت بمنجاة من الأذى في بيتنا، بل كان من تسول له نفسه مسي باي أدى مهدداً من أبي، لذا بدا لي أن دقائق قلبي المرتعب والتي كانت تتصاعد كلما دخلت الفصل المدرسي، هي ما دفعني للاجتهاد والتفوق بأقصى سرعة، فقد كنت أنهض وأجيب على السؤال المطلوب من المعلمة والسؤال الذي لم يستل بعد؛ لمرط خوفي منها، تلك التي لم تكن تتوانى عن إحراق الأكف الصغيرة البضة بعصاها الملتهبة لمحرد أن إحداهن كتبت حرفاً ماثلاً عن السطر.

أما تفسيري الآخر لتفوقي فمافستي الشديدة مع أخي الذي يكبرني مباشرة، فقد كنا نتنافس أينا يتفوق على الثاني عند نهاية الفصل، وكنا نتنافس على محبة أوي، بل كنا تنافس في كل شيء تقريباً، وكانت هذه المنافسة تروقي قبل دخولي للمدرسة، فلما دخلتها أصبح التنافس الدراسي الوسيلة الوحيدة التي أنفي بها تعيره عني، فقبل المدرسة كان شعري قصيراً وكنت ألعب معه الكرة، وبعدها أصبح لا بد من ترك شعري يطول ويجدل في حذيلة، وكانت هذه الحذيلة نقطة ضعفي في منافستي لأخي؛ إذ كانت تمكنه أن يقبض علي بسهولة بمحرد أن يلتقط طرفها وأنا أجري، في حال كنا نلعب معاً، أو حينما أستفزه فيلاحقني للظفر بانتقامه السهل بشدها.

وعندما انتقلنا من الحي الذي قضيت فيه طفولتي الأولى بين بيوت أجدادي وأعمامي وصديقات الطفولة، إلى بيت جديد بطابقين وحديقة كبيرة، بناه والدي لنا في حي جديد وقتذاك، جردني الانتقال له من كل

ما كنت أتمتع به في حيننا السابق، فقد كنت لا أُمْنَع من الخروج إلى الشارع إلا وقت الظهيرة وبعد صلاة المغرب بقليل، وبعد انتقالنا لبيتنا الجديد، أصبح الوضع مختلفاً فلا بيوت كثيرة تحيط بنا في ذلك الحي، ولا صديقات، ولا أي بقايا من مباح عالمي الأول، كنت وقتها أدرس في الصف الخامس الابتدائي في مدرسة جديدة، وبين وحوه جديدة، ولما انتقلت إلى السنة السادسة الابتدائية كان علي أن أرتدي العباءة، ولم أعد أخرج للشارع بطبيعة الحال، ووجد أخي وسيلة أخرى لمناكفتي، فقد أخذت تظهر مميراته في الخروج من البيت وقتما أحب، في حين كان عليّ البقاء فيه، وبعدما كما كفرسي رهان أصبحت الأشياء تُفَرِّق بيما.

ومع هذا فقد بقي التفوق الدراسي هو وسيلتي الأمصى لإثبات الذات، وحتى عندما تلاشت تلك المنافسة مع التحاق أخي بالمرحلة الدراسية المتوسطة، وانحصار تنافسنا في مجال الألعاب؛ إذ انتقلنا من لعب الأونو، إلى المنوبولي، فالشطرنج، لم أعد أملك التخلص من عاداتي الدراسية وكما في الحديث السوي (والذي بعثك بالحق ما أحسنُ غيرَه) ^(١)؛ فلا أعرف طريقة أخرى للدراسة، غير تلك التي اعتدت، بل عدوت أحب الدراسة بصدق وإخلاص وتفان..

وكان مما سرني بعد رواحي عند حصول إبراهيم علي وظيفة في مدينة تسوك، أنه كان يسعى إكمال دراستي والحصول على درجة البكالوريوس، إذ لم يكن في البلدة التي شأنا فيها جامعة ولا حتى برامج دبلوم في ذلك الوقت، وكان جدي لأبي رحمه الله قد انتقل بحدثي قبل

(١) راجع نص الحديث كاملاً فيما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة (٧٥٧)

سنوات من مجيئنا إلى الدنيا، من مضارب القبيلة في نواحي الحجاز إلى القرى بعد تعيينه مديراً لجمركها فوكيلاً لإمارتها، قبل تحويلها إلى محافظة من محافظات منطقة الجوف، بعد سنوات لاحقة، ويبدو أن القرى راقت له فأحبها وقرر الإقامة فيها، ومن حراً أراضي الحجاز إلى أجواء أطراف الشمال الباردة كان التحول، وهناك ولدنا أنا وإبراهيم، وهناك كانت تسكن عائلتنا.

وفي تبوك سجلت في قسم الرياضيات في كلية التربية قبل تحويلها إلى جامعة، فقبلت في القسم وبدأت الدراسة في السنة الأولى لرواجي، ثم حملت حملي الأول، ذاك الذي لم ألبث أن فقدته، ثم حملت بعدها برحمة فرفعت طلب تأجيل للدراسة لمدة عام آنذاك، وبعد فقدانها لم أتمكن من العودة إلى الكلية، لتقدم إبراهيم بطلب وظيفة في القرى، وقبول طلبه، وانتقلنا إليها، وهناك فقدت حملاً آخر بعد رحمة، وكان برنامج الدبلوم قد بدأ في مدينتنا فسجلت للدراسة لكلاً أفكر بما يحدث لي من فقد متكرر مجهول السبب، وبدأت الدراسة في العام الذي تلا انتقالنا، فحملت مرة رابعة، لكنني أبيت ترك الدراسة هذه المرة لأن الفقد الأخير لجيني لم يكن مرتبطاً بها.

كما أنني لم أكن أعمل أي شيء في المنزل فقد فاجأني والدة إبراهيم بتوفير حافلة منزلية استقدمتها لأجلي، ولم يكن بوسعي احتمال الفراغ، فلم تكن اهتماماتي العلمية تشكلت آنذاك، وكنت أمضي معظم وقتي في القراءة ومشاهدة الأفلام والمسلسلات، ولذا وجدت في الدراسة شعلاً صارفاً عن التفكير في هذا الجنين الذي ينمو داخلي ولا أعلم هل سأراه أم سيحدث معه ما حدث مع رحمة، وسارت الأمور على ما أحب،

ووجدت في الدراسة متعة، وكونت صداقات جديدة، وفي نهاية الفصل الأول من السنة الدراسية الأولى للدبلوم، كنت قد أكملت أربعة أشهر من الحمل، وكان لدي موعد مع طبيبة مختصة لا تأتي للمستشفى إلا مرتين في العام، وعندها كانت ستخبرني إن كان جنيني يشكو من تشوه أم لا.

وكنْتُ سأتغيب عن الكلية يومها لولا أنه كان لدي اختبار أحياء يجب أن أحضره أولاً. فذهبت إلى الكلية على أن يأتي إبراهيم لاصطحبني بعدها لموعدي، وقد أخبرت المسؤولة أنني سأخرج في الساعة المحددة ولن أكمل اليوم الدراسي فأذنت لي، فلما حان الموعد لم أتمكن من الخروج، وكان الوقت مبكراً وبوابات الخروج مغلقة ولا بد من أن تأذن المسؤولة بفتحها، فذهبت إليها، فلم أجدها في مكتبها، وصادفتها تحدث عددًا من الطالبات في الرواق، فكلمتها وذكّرتها بطلبي الخروج فرفضت، فأخبرتها بأن الموعد مهم جدًا بالنسبة لي وحساس جدًا وليس موعدًا عاديًا يمكن تأجيله، فرفضت، ولأنني كنت مشحونة بالمخاوف والترقب والتوتر تجاه كل التوقعات التي سيحسمها تشخيص الطبيبة هذا اليوم، فقد دمعت عياني وأما أتحدث، فنهزتي وسخرت من دموعي زاعمة أنها مجرد (دلع) وأطلقت صرخة مدوية لمعاودتي الطلب منها، صرخة دارت معها رؤوس الطالبات نحوي. عندها انسحبت لأول ركن صادفته في الجوار، وانفجرت باكية، بعيدًا عن أعين الطالبات، كانت دموعي المنهمرة أمام جبروت تلك المرأة قاسية القلب بمثابة إهانة لنفسي، ما كنت لأرتضيها، وأقسمت ألا أراجع إلى الدراسة بعدها.

لم يكن هذا الموقف عابرًا، ولا طبيعيًا بالنسبة لي، فقد كنت شخصية

قوية متحدة، فكيف لصرخة واحدة أن تهزمني، كيف لكياني أن يتصعق لها! لم أكن أنا قطعاً تلك الضعيفة الخائرة القوى، تلك التي انسحبت دون أن تدافع عن حقها، وتلقن تلك المتعجرفة درساً في الإنسانية واحترام الآخر.. ولم أجد في أي شيء مما ذكره لي إبراهيم من مبررات للعودة إلى الدراسة وذكرته من بعده صديقاتي لحملي على التعاضى عما حدث والرجوع إلى الكلية أي أثر أو عزاء.

لقد هُدمني الموقف لأنني كنت قابلة للهدم، لهشاشتي الداخلية، لذا كان الشعور بالذنب تجاه نفسي التي لم أخيمها من غلظة تلك المرأة موجعاً ومحطماً، وعندما يحترم المرء نفسه، ويعيش محافظاً على كرامته العمر كله، يصبح هديرها أشبه بسفح دمه، ولا فرق.

مثل ذلك اليوم منعطفاً حاداً في حياتي، حافظتُ بعده على إصراري على عدم العودة إلى الدراسة، دون أن يكون ذلك مانعاً لي من محاولة استعادة ذاتي الأولى، وعندها، عند تلك اللحظة بدأت رحلة الاهتمام بالقراءات المتصلة بفهم النفس، وأصبحت الدراسات النفسية والتنمية الذاتية تحتل مساحة واسعة من اهتمامي، وكانت محاولةً لتلافي إهمالي لتأثير الفقد في شخصيتي، وإعادة رأب ما تصدع داخلي بعدما حدث، ولا يسعني هذا قبل أن أفهم ذاتي فهمًا عميقًا، وكان للجوئي لتلك القراءات أثرٌ جانبي لا يقل أهمية عن محتوى ما قرأت، وهو أن هذا النوع من الكتابات المترجمة عن الإنجليزية غالبًا، كانت كتابات وظيفية، وتتسم بطابع إجرائي صرف، وبخلاف الكتابات الأدبية، كانت كتب الدراسات النفسية والتنمية الذاتية خلواً من الفن، ومن الأساليب الجمالية والبلاغية، وكان لأسلوبها التحليلي والعملية المباشر أثرٌ في تخفيف

غلوائي العاطفي الذي عززته الكتابات الأدبية، بل إن كتب التسمية الذاتية كانت مرحلة وسيطة نحو الكتابات الفكرية العميقة، فبعد أن كنت ألاحق الأساليب الجمالية والإيقاعات الوجدانية فيما أقرأ، بُتُّ ألاحق الفكرة، وكما كان للكتابات الأدبية جاذبيتها الفاتنة، باتت للفكرة جاذبيتها الأكثر فتنة، وهكذا عبّرت بي تلك الهزيمة النكراء من الذاتي إلى الموضوعي.

هيفأؤنا

الحياة تنبعث من جديد

أحسك بين نبض القلب نبضاً

يفضي بهجتي ومغماً ويزقاً

أحسك في دمي سعراً وعطراً

يغام جاهداً فيما تنبلى

روضة الحاج

أصاءت هيفاء حياتنا بعد مضي أكثر من أربع سنوات على زواجنا، وكان استقبالها لها حافلاً بهيجاً، ولا زلت أذكر كيف بقيتُ أتحدث لوقت طويل بشبه هذيان المحموم بعد أن أطلت هيفاء على الدنيا وخرجتُ من غرفة الولادة بسلام، كانت ثرثرتي فرحاً بالمولودة، وفرحاً بالنجاة، وفرحاً بعودة الحياة إلى جسدي المسكون بالموت قبل رحيل (رحمة) وبعده.

وكانت أمي قد رافقتني طيلة الساعات الإحدى عشرة التي استغرقتها الولادة، فقد دخلت المستشفى في المساء وأشرقت علينا هيفاء في صبيحة اليوم التالي، وطيلة تلك الساعات لم تنم أمي ولم ترتح للحظة، وكانت خائفة ومتوترة من أن يتكرر معي ما حدث لي في ولادتي الأولى بطريقة أو بأخرى، وكنت أشعر بالوجع يسري من جسدي إلى قلبها كلما أحسنت بي أعاني آلام الطلق، ولم تفتأ تتعجب من صمتي طيلة فترة

المخاض، كانت تنظر إلى شفاهي وقد ازرقّت من شدة الألم، وتقول لي ليس عيباً أن تثني يا ابنتي، لكنني كنت شديدة الخجل من أن يسمع أحد في الغرف المجاورة أنني، ورافقتني منذ ذلك الحين عادة (الولادة الصامتة) التي بدأت مع رحمة ثم هيفاء وحتى آخر طفلة أنجبتها بولادة طبيعية.

ولم يسكن قلق أمي ولم تريح المكيان الذي أنا فيه حتى غادرتُ جناح الولادة ونُقلت إلى غرفة خاصة، وهناك قالت لي وهي تستلقي مبهكة على سرير المرافق: اهبطي وحاولي أن تنامي فلن تدعك تلك الطفلة تنامين كما كنت قبلاً، وستؤقتين لنومك ويقظتك وفقاً لساعات نومها ويقظتها بدءاً من الآن وحتى تتمكني من تنظيم أوقات رضعاتها ونومها بعد أشهر.

لا أدري كم استمررت في الكلام والهذيان بعدما قالت لي أمي لكنني استسلمت للنوم أخيراً، لتوقظني الممرضة بعد ساعات وبين ذراعيها هيفائي، وفتحت أجفاني على قول أمي: ملاك هذه ابتك فاحمدي الله، فحمدته وضممتها إلى صدري ويداي ترتجفان من الانفعال بالموقف، وأخذت أشمها وأحبس أنفاسي لتذوب رائحتها في دمي وتخلل كل ذرة من كياني. كنت أتأمل بشرتها الرقيقة الشفافة وأنعها الصغير وشعرها الأشقر الخفيف وهي مغمضة العينين، ثم أزحت عنها الغطاء الذي يلف جسمها وحاولت إيقاظها برفق، ووضعت إصبعي في يدها لتقبض عليه بأصابعها وكل ما في داخلي يتشوق لهذه اللحظة ويموح بالحنان، ولفت انتباهي أصابعها الطويلة والرقيقة، وقلت لأمي انظري إلى أصابعها تبدو كأصابع عازفات البيانو في الروايات، وكنت أتطلع لرؤية تلك العينين

الصغيرتين المغمضتين وعندما فتحتهما كانتا بلون مختلف، فقلت لأمي عيناها ملونتان، فردت أمي ربما، وأخذتها حيث يشع ضوء الشمس من نافذة الغرفة ثم نظرت إلي مبتسمة وقالت ملاك عيناها بلون البحر! وفعلا كانتا بحريتان، ومن لحظتها اشغلت أمي بحفيدتها الأولى، وقامت فلم تقعد، لقد كانت مأخوذة بها، وبقيت هيفاء الحفيدة الأثيرة عندها حتى رحيلها رحمها الله.

أما إبراهيم فقد كانت سعادته لأجلي بقدر سعادته بمولودتنا، وكان يتظر إجازته السنوية التي أزفت ليحظى بأطول وقت ممكن بصحبتنا، ففضينا تلك الإجازة وحدنا في بيت والده الصيفي في عمان الأردن، وكان إذا سمع مناعة هيفاء عند الصباح ينهض من سريرنا بهدوء ويستلها من مهدها دون أن أشعر، وينذهب بها إلى الصلاة ليلعبها، وكان عمرها آنذاك أربعة أشهر.

وكان قد أخبرني قبل تلك الإجازة أنه سيسافر في رحلة عمل إلى اليابان ويبقى هناك لمدة شهرين، ولذا حاول ما استطاع مرافقتي وهيفاء أطول وقت ممكن، فلم يسبق لنا منذ زواجنا أن افترقنا كل تلك المدة، ولم يحدث أن افترقنا مثلها بعد تلك الرحلة أيضاً.

وكنا نتهانف من وقت لآخر، دون أن يمكس الإطالة ولا التعبير عما يختلج في صدورنا، فقد كان يهاقني من هواتف السكن العامة واقفاً ولم أكن أحب أن أوقفه طويلاً، لكننا كنا قد اتفقنا على خوض تجربة المراسلة في وقت كان قد ولى فيه زمنها؛ فقد بدت لنا تجربة جديدة وجميلة بحسب ما صورته لنا كتب الأدب آنذاك، لذا كان علينا خوضها وقول ما لم يسمعنا قوله في مهاتفاتنا القصيرة. ووصلتني أول رسالة منه،

ما زلت أحتفظ بها حتى اللحظة بمظروفها وأختامها وطوابعها البريدية، وكان قد أرسلها لي حين غادر طوكيو إلى أوساكا، وحملها إليّ أبي عند عودته من العمل، إذ كنت أقيم أثناء سفر إبراهيم في غرفتي الكاتنة في بيت أهلي قبل أن أتزوج، وحين لُوح لي أبي بالمظروف مبتسمًا قفزت إليه لاستلامها وطار بي فرحي بها إلى الطابق العلوي ومنه إلى غرفتي لإغلاق الباب والاختلاء بالرسالة.

كأت كلماته دافئة وأنيقة كعاداته، فاستهل رسالته بحديث عذب رقيق عن اشتياقه لي وهيفائنا، لأحاديثنا معًا، لأمسياتنا ولياليها، وفنجان القهوة الذي أعد له بيدي كل صباح، وأتبع أحاديث الشوق بسرد ما حدث معه في رحلة سفره منذ أن غادر مطار الرياض وحتى وصوله إلى مطار طوكيو، ومنها إلى أوساكا، فالسكن المخصص له هناك، وحكى لي بعدها كيف تنقل من مدينة يابانية إلى أخرى أثناء العمل، وكيف يقضي يومه هناك، وأمور أخرى.. طمأنني وطلب مني ألا أحزن لغيابه، لكنه عاد ليحدثني عن أشواقه المضنية، ويطلب مني الكتابة إليه.. لا أدري كم مرة أعدت قراءة رسالته، لكن الذي أدريه أنني في كل مرة كنت أعيد فيها قراءة كلماته كان ينبجس معها داخلي شعورٌ جديد، وشوقٌ جديد، وحينئذٍ لا يهدأ.

أمي .. فجر الرحيل

ولون السماء الذي لا يراه
كثيرٌ من الناس
حين يمرُّ على القرب من دارها
يتمهل،
ماذا يقول وقد رحلت
في الصباح الحزين
قناديل أمي؟

عبد العزيز الخاليج

همسَ لي عند الخامسة فجراً، ملاك.. فأفقت ورفعتُ بصري إليه،
وبدا لي مرتبكاً، فنهضت من فراشي وسألته مباشرة، وكأنما كنتُ على
أهبة الاستماع لخبر سيء: هل أمي بخير؟ قال: اتصل أخوك وأخبرني
أن حالتها متأزمة. وكانت أمي في العناية الفائقة في مدينة الملك فهد
الطبية بالرياض، منذ شهرين، وكما نزرها يومياً، كانت غائبة عن الوعي
لكننا كنا في ذروة الرجاء أن تغيق من غيبوبتها المفاجئة ونعود لها عافيتها،
لتعود لنا، وتسكن المنزل الذي بناه أخي لها في المدينة المنورة، حيث
كانت تحب.

وقد أحببتها محبة العارف بفصلها، وكانت تحتفظ بكتاب فضائل
المدينة للرفاعي، ولا تملُ النظر فيه، آملة أن تقضي آخر أيامها فيها
رحمها الله، لكن الموت عاجلها قبل أن تخطأ قدماها عتبة ذلك البيت

قال لي إبراهيم حينها: بذلي ملابسك لنذهب إلى المستشفى فتاولتُ

ملايسي من الدولاب، وأيقظت العاملة لتتبه لرضيحي الذي تركته في مهده بغرفتنا، وصارعت في النزول إلى الطابق الأول، ودخلت أول غرفة صادفتني لأبدل ملايسي دون أن أشعل ضوء الغرفة، ولم أنتبه أن إبراهيم كان يقف خلفي حتى سمعته فجأة يقول لي وأنا نصف عارية في الظلام: ملاك عمتي توفيت! فتحجرت مكاني ولم أنبس بكلمة، ولم ألفت إليه، ثم أكملت ارتداء ملايسي، وارتديت عباءتي وخرجت إلى الشارع دون أن أنظر ناحيته.

وكهائمة بقيت واقفة هناك بانتظار أن يأتي ليأخذني لأمي، بدا لي أنني وقفتُ دهرًا، وكانت عتمة الليل آخذةً بالانجلاء وزرقة السماء تختلط بصفرة الشروق، وإذا بالمباني المقابلة لي تتحرك وتمايل وتدور ببطء أمامي.. كنتُ تحت تأثير الصدمة، فقد زرنا أمي قبلها بيوم ففتحت عينيها ونظرت إلينا، وسألناها إن كانت قد تعرّفت إلينا، فأومأت أن نعم! فإذا بخبر الوفاة يفجؤني دون سابق بأس من شفائها، بل بعد سابق أمل به، ولما أحسست ببصري يزوغ والأرض تروغ من تحتي، وبشيء يتهاوى داخلي، تشبّثُ بالاسترجاع والاستغفار والحوقة، كنتُ أربت على قلبي، وأتصبر، حتى وصلنا المستشفى، وصعدنا إلى قسم العناية وإبراهيم يسير معي صامتًا بعد أن حاول أن يمسك بيدي مرات عديدة فأولئها منه؛ كنت عاتبةً عليه لإخفائه الخبر للحظات عني، لمفاجأتي به من ورائي دون أن يُريني وجهه، لإخباري به وأنا لم أتدثر بشيabi بعد، وكأنّ هذا الفعل قد انتزع جلدي فبرزت معه أوصالي وشرائيني، كان الخبر كطعنة تلقيتها من الخلف، ولم أدرك ساعتها كم كان إبراهيم مصدومًا هو نفسه بوفاتها، ولم أشعر به، فقد غشيتني صدمة الموت، ولم يعد يترأى لي إلا نظرات أمي لنا في زيارتنا الأخيرة لها

واصلنا سيرنا، فإذا بأخي يقف في آخر العمر قبالة غرفة أمي، وكانت
الممرضات في غرفتها يجهزنها لوضعها في ذلك المكان البارد، ذاك
المكان الذي لم تكن أمي تنطق باسمه!

أبصرت أخي فمزقني منظره المتماسك رغم الفاجعة.. أخي الذي
كان يحب أن يجلس دائماً عند قدميها بينما هي جالسة على الكنب،
وجئت مرة أزور أمي أيام مكثها في المستشفى فشاهدته يجلس على
أرضية غرفة المستشفى ويتلو القرآن فاستغربت وقرئت له الكرسي،
فاستمرّ يتلو وأشار لي أن لا حاجة له به، فلما انتهى سألته لما فعل ما
فعل؟ فقال: كنت أحب الجلوس عند قدميها أيام عافيتها فاشتقتُ له.
أخي الذي ربط مصيره بأمنياتها دون أن تطلبه، فبنى بيتاً لأسرته حيث
كانت أمي تتمنى أن تسكن.

وبشأن الله بعد سبع سنوات من رحيل أمي أن يصاب أبي بالسرطان
ويأتي به أخي نفسه إلى الرياض للعلاج في مدينة الملك فهد الطبية التي
لغظت فيها أمي أنفاسها الأخيرة، ويرافقه أخي مدة إقامته في المستشفى،
قبل أن تتدهور صحة أبي ويدخل في غيبوبة ويُنقل على إثرها إلى قسم
العناية الفائقة، ويتكرر المشهد لأصادف أخي يقف الموقف نفسه، قبالة
الغرفة نفسها، في العمر نفسه الذي رأيته فيه بعد أن تلقيتُ خبر وفاة أمي.

الفارق هذه المرة أنني حين جئت إلى المستشفى لم أكن أعلم بعد
أن أبي قد توفي، لأن حالته لم تكن مستقرة، ومرّ بانتكاسات صحية أشد
من هذه وتجاوزها، وكان أخي قد كتب في الواتساب قبلها بقليل أن أبي
يعاني وأن حالته خطيرة، وكنت وقتها أراسل ابنتي نور من خلوة بحثية
كنتُ قد استلمت مفاتها في اليوم نفسه من مسؤولات المكتبة الجامعية

بعد طول انتظار، كنا نتصاحك أنا ونور في الواتساب، فلما رأيت رسالته تصل إلى المجموعة التي تضم إخوتي وأخواتي وتنزل من أعلى الشاشة كصاعقة، قطعْتُ حديثي مع نور، وهاتفته فحاول طمأنتي لكنه قال لي: لا تأتي حتى أتصل بك، فقلت له سأتي على أية حال، واصلت الظهر، ثم سارعت إلى المستشفى وصعدت إلى قسم العناية، لكن خطاي تفاقمت عندما اقتربت من المنعطف الذي يقودني إلى العمر، وأصبحت أجرورجلي جرأ.

وعند انعطافي أبصرت أخي جالسًا هناك في العمر ويده فارورة ماء، فلم أترحزح من مكاني وتبادلنا النظرات من بعيد، فأومأ لي أن اقتربي، لكنني تذكرت مشهد وفاة أمي، وأريكني تكراره، فأشرتُ لأخي بيدي متسائلة عن حال أبي، فأشار إلي بيديه الاثنتين أن قد رحل أبي!

ثقيبت إشارته قلبي واستقرت فيه كرصاصة، فقد قُدمت هذه المرة وحدي، لم يكن إبراهيم يسير معي وأنا أنمّنع من وضع يدي بيده، وكنت قبلها قلقة ومتوترة وأنجاهل الاتصالات الواردة طيلة الطريق وكأنما كنت أنحاشي سماع خبر كهذا وأنا أقود سيارتي، لكنني لم أكن أنا ذاتها تلك الشابة التي تلقت خبر موت مولودتها، ولا تلك التي المرأة الناضجة التي تلقت خبر موت أمها، ثم موت زوجها، كنتُ أكبر سنًا، ومشربة بمرارة فقدين، بل ثلاثة، بل أربعة. كنتُ أحمل في قلبي نوارينغ فقيد جعلتني أميز بين مراراته؛ إذ لكل فقد مرارته الخاصة، وكنتُ حينها أوفر علمًا بعاقبة الصبر على الابتلاء وحكمته، كنتُ أكثر تعلقًا بالله، وأقدر على التعامل مع المصاب، وإن كان الراحل لا عوض له..

وأعظم مفقودٍ رزئت به من لا مظهر له في الخلق يخلعه

كان أخي الذي شهدت معه الوفاة، هو نفسه من كنت أنفاس وإياه على محبة أمينا في صغرنا، هو نفسه مع تشاركت معه فقد هما، وهو نفسه من كان لي الشئ بعد رحيل إبراهيم بعد أمي بثلاث سنوات، وكان أخي هذا الذي كنت أشكو من تسلطه علي وأنا صبيّة، يُمضي عطلة نهاية أسبوع معنا في الرياض، وأخرى مع أسرته في القرى في الشمال، مدة عام كامل، وكان قد وضع قبل عودتي إلى الرياض بعد أشهر الصيف مبلغاً من المال في حسابي، وعندما سألته عن سبب تحويله ذلك المبلغ، وأصررتُ على رده إليه لعدم حاجتي إليه، رجاني ألا أفعل قائلاً: أعلم أنك لا تحتاجينها، وحولتها فقط لتشعري بالأمان!

وإن يكن لتعاقب الفقد على القلوب من أثر، فليس التبدل قطعاً، فما من مصاب يفقد أحبه يملك أن يفقد إحساسه بفقد المزيد منهم؛ بل التبدل صياغة رديئة للنتيجة المستخلصة من خبرة الفقد، وإن كنت ممن يوافق المتنبي في أبياته التي يقول فيها:

رماني الدهر بالأرزاء حتى	فزادي في غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابني سهمٌ	تكسرت النصال علي النصال
وهان فما أبالي بالرزاء	لأنني ما انتفعتُ بأن أبالي

وحسبت أن الفقد شبيه بهذا، فكنت أقول: كلما تكاثرت النبال، كلما ضُغِفَ الشعور بالألم ولم يتضاعف، هو فقط إحساس الوحزة الأولى، فجميعه دفقة الدم الأولى، ثم يصبح الألم كالزف معتاداً!

بيد أنني استيقنتُ بعد كل ما مرّ بي، أن أبيات المتنبي لا تصدق على موت الأحبة، وما يحدث لنا عند فراقهم ليس تبدلاً وإنما هو ألفة الخبرة الموجهة، حتى إذا عاودت الرجوع إلينا بأشكال أخرى لم نكرها كأن لم نعرفها من قبل، وكيف لا؟ وقد بقيت مرارتها الحارقة في الجوف تضطرم، وما ألفناه منها هو فقط ما أنكرناه ابتداءً: ألمُ لَسَعَتِها الأولى.

الجائحة .. وقلق العدوى

يغيب ظلي في المساء ولا تغيب

لا ساعة

ولا دقيقة

ولا مسافة ارتداد الطرف يا .. أنا

روضة الحاج

أصيب إبراهيم بالتصلب اللويحي في الثلاثين من عمره، وكان على رقة قلبه وجيشان عاطفته صبوراً أشمًا واثقاً بالله راضياً بقدره شاكراً لأنعمه، لم يعرف اليأس إلى قلبه سيلاً، ولم تجد الشكوى إلى لسانه منفذاً، فبقي يقوم بمهامه الأسرية حتى آخر لحظاته، وظل يتقدم في عمله كأبي سليم صحيح لا يتقضى الليل ما بين أوجاعه وأنيبه.

وزاد قلقي عليه من وقتها، وكنت من قبل أخشى أن يمسه سوء، وأحرص حتى على سلامة الطريق الذي يمشي عليه، وأتحرز بإزالة كل ما يمكن أن يعترض طريقه فيتعرّبه، وقد كان رحمه الله سريع المشي ويتعرّ أحباتنا، حتى قبل مرضه.

وأصبحت جمعتي الشائعة في بيتنا: (انتبهوا... لتلايق أبوكم) جملة تثير الضحك بيننا.

وتضاعف هذه الخوف مرات ومرات مع ظروف جائحة كورونا وإقامة الحظر العام في كل مكان، فأصبحت أعقم كل شيء يمكن أن تلمسه يداي، وأشرف على العاملة، وأشاركها التعقيم حتى تقوّحت يداي

من المطهرات، وكنت أرجوه ألا يفتح الباب للمندوب عندما يوصل
المشتريات من المتاجر، وأما بقية إلى الباب أحياناً، حتى ضجر من خوفي
الشديد عليه ووصفه بالحبس، ولم يكن ذلك ليوقفني أو يثني عن رأيي.
وفي إحدى ليالي رمضان خرج من المنزل ففرغنا لغيابه، إذ جاءت
ابنتي تخبرني والروع يملؤها:

بابا ليس موجوداً في البيت!

وكان حظر التجول قد رُفع جزئياً، فإذا بإبراهيم يرسل إلى مجموعة
العائلة في الواتساب مقطعاً يصور فيه الشارع أثناء قيادته السيارة داخل
الحي ويقول، ضاحكاً: تمردتُ على أمكم وهربتُ من سجنها!

ومع ذلك فقد كانت ظروف الجائحة رحمة، فقد مكنتنا من رفقة
لأطول وقت ممكن، حتى لا نكاد نفترق إلا ونشتاق لبعضنا، وكنتُ
وقتها أحضر رسالة الدكتوراه، وكان ينزل إلى الطابق الأول ليفسح لي
مجالاً للبحث، ثم لا يلبث أن يتصل بي عبر كاميرا الفيس تايم، ويغريني
بالطقس الجميل ويدعوني للتزول وشرب كأس من الشاي بالعنعاع أعدته
له ابتنا نور، وكانت تُعده له وتجلس معه في ذلك الوقت المخصص
لتناول الشاي في حديقة المنزل كل ليلة.

ثم رُفع الحظر كلياً وعادت الرحلات الجوية تدريجياً لتصل بين مدن
المملكة، وقررنا السفر كالعادة في كل إحازة صيفية إلى أهلنا في شمال
المملكة، فقد كنا نزورهم ونمضي معهم جزءاً من الإجازة الصيفية ثم
نسافر من هناك للسياحة، ولكن الخطوط الجوية لم تكن قد استأنفت
الرحلات إلى ذلك الطرف القصي من بلادنا بعد، ولأول مرة قرر أن
يسافر قبلنا، ولأول مرة نفترق في سفر الإجازة إلى أهلنا، فسافر مع هياء

إلى مدينة قرية من مدينتنا، وجاء أخوه لاستقبالهما والسفر بهما إلى حيث يقيمون، وبقيت مع الأولاد في الرياض، إلى حين فتح الرحلات، لا لمانع إلا الحياء، إذ كنا أسرة كبيرة فاستحييت أن نثقل على أهل هناك بتجشم السفر إلينا بسيارتين لإقلالنا وأمتعنا الكثيرة من المطار.

وما أن وصل إبراهيم وهيفاء إلى هناك حتى شرع في الانتقال من المنزل الذي كنا نقيم فيه إلى آخر قريب من منزل والدته ومنازل إخوته، ولم أكن مقتنعة بفكرة الانتقال لأنني كنت أفضل بيتاً أرضياً بحديقة للاستمتاع بأجواء المنطقة الباردة، لكنني رضيت لإعانتة على برّ أمه الحبيبة، لا إليه فحسب، بل لي أيضاً. خاصة وأنه انتقل معي إلى الرياض لأكمل الدراسات العليا وترك كل شيء خلفه، بما فيه بيتنا الذي كنا نبنيه آنذاك بقرب منازل أسرته.

وكان سعيداً بوجوده بينهم بعد طول غياب، فأرسل لنا صور استقبال أمه السعيد به وهيفاء، وصورته بثوب بيتي جديد أهدته له أمه الحنون، وكان يرسل لنا صور الجلسات التي يقضيها مع إخوته وأخواته في حديقتهما، ويمازحني مرة بعد أخرى بالتغني بحريته بعد الانعتاق من سجن.

الأرق السابق للوفاة .. ورأفته بي وهو بعيد

هدأ الليل ولا قلب له

أيها الساهر يدري حيرتك!

إبراهيم ناجي

اعتدنا طيلة فترة زواجنا على محادثة بعضنا البعض وقت السفر الطارئ مرتين على الأقل: مرة قبل النوم مباشرة، ومرة عند الاستيقاظ منه، لكن إبراهيم خرق هذه العادة في سفره الأخير بلا سبب واضح، فكان يحدثني في أي وقت في اليوم واليلة، عدا ما قبل النوم، وكنت أسأله متعجبة: لماذا لم تهاتفني ليلة أمس؟

فيقول ظننتك نائمة أو تعملين على رسالتك فلم أرغب بإزعاجك.

وكنت أجيبه في كل مرة: ولكنني أسعد بالتحدث معك ولا تزعجني مهاتفك، ولا يمكن لها أن تفعل!

وما أن مسافر حتى أصابني الأرق فأخذ النوم يجافيني، واضطرب مستوى السكر في دمي، إذ كنت مصابة بالسكر من النوع الثاني، لكنه لم يكن يشهد ارتفاعات كبيرة كالتي حدثت إبان سفر إبراهيم، وكان قلقاً لأجلي فحثني على الذهاب إلى المستشفى وإجراء التحاليل، فتصلت متذرة بانشغالي، فطلب من ابن أخته وكان طيباً أن يحدثني للاطمئنان حول وضعي الصحي المضطرب فجأة وبلا سبب ظاهر.

فاتصل بي وطلب مني إجراء التحاليل المنزلية وتزويده بجدول النتائج بعد أيام، ففعلت.

ولم يفتأ إبراهيم يتصل ويعلمني على صحتي، ويحدثني عن إنجازاته في الانتقال إلى البيت الجديد والأجهزة التي اشتراها، ويشاورني حول أماكن ترتيب الأثاث في الغرف، ويصور ويرسل لي، ويستحثني لاستغلال الوقت أثناء غيابه، فكنت أخبره أن كل ذلك الحماس للعمل على الرسالة قد انطاعاً بعده، وأن كل شيء في غيابه أضحى صغيراً وضيقاً وتافهاً ولا قيمة له.

المهاتفة الأخيرة!

ولماذا ينطفي أحبابنا

قبل أن يستنفد الزيت الذبال؟

ثم ننسى الحزن بالحزن ونحن

يا ضياع الردء.. يُنسينا السؤال؟

عبد الله البردوني

كان يرغب طيلة الأيام التي قصاها هناك بمحادثتي عبر كاميرا الفيس تايم، وكنت اعتذر لأنني لم أكن مستعدة وقت اتصاله بالمظهر الذي أحب أن يراني عليه، وغاية ما في الأمر أنني كنت أرغب أن يراني بلباس مختلف، فعلى عكس الكثيرين كانت تلفته التفاصيل ويحتفي بها ويُعلق على أية إضافة جديدة أو تغيير يسير يلحظه في مظهري أو بيتنا، وقبل وفاته بيومين ابتعثُ فستانًا صيفيًا بسيطًا، وهاتفته عبر الفيس تايم، وكان سعيدًا وهو يحدثني لكنه بدا منهكًا ورأيت على ملامحه وهما زائد عن المعتاد، وبداء لي وجهه وكأنه يعاني من انتفاخ يسير، لكنني كنتُ سعيدة مثله بالمهاتفة فلم أتمق وأذهب بعيدًا في التفكير في الأمر.

وفي ليلة وفاته - رحمه الله - اتصل عبر الفيس تايم أيضًا وكنت وقتها في مكتبة المنزل أعمل على الرسالة، فأجستُ على اتصاله لكنني لم أظهر وجهي معتذرة بأنني لم أكن بالمظهر الذي يحب، وكنت أصفف شعري وقتها بطريقة لا تروق له، ولأنها كذلك لا أفعلها إلا في غيابه، إذ كان يحبه منسدلاً وكنت وقتها أرفعه. فأصرَّ وأيئت، فضحك لعنادي وتدقيتي

غير الضروري، وتحدثنا والكاميرا موجهة إلى الجهة المعاكسة، وطلب مني عند نهاية حديثنا أن يشاهد الأولاد عبر الكاميرا، وكانت نور تجلس على كرسي المكتب، فناولتها الجوال ليهااتفها ريثما أدعو البقية ليهااتفوه، وهااتفهم بشًا وبشًا وابنًا وابنًا، ولم يدُر في خَلْدي وقتذاك أنها المهاتفة الأخيرة!

وفي اليوم التالي (الجمعة) استيقظت متأخرة لسهري على الرسالة وغياب استعداداتنا المعتادة للجمعة بسبب سفره، فلا أحد سواه يصلي الجمعة في المسجد، وكلنا نصليها ظهرًا، وعمر وسعد صغيران.

وكنت سأهاطفه لحظة استيقاظي من النوم كما جرّت العادة، لكن أمرًا لا أدرك كنهه دفعني للترؤي وتناول أي شيء قبل أخذ الدواء، فأكلت قطعة من البيتزا، وتناولت الدواء، واتصلت به، لكن هاتفه كان مغلقًا، فساورني قلقٌ غريب، فقد كان لا يخلق هاتفه بحال، وكان قد تعرض قبلها بيومين لإغماء قصيرة وسقط في الاستراحة التي يجتمع فيها مع إخوته وإخوتي ورفاق الطفولة، ويُقل إلى المستشفى وأجريت له فحوصات شاملة باستثناء تخطيط الدماغ، إذ طلب إبراهيم إرجاءه إلى ما بعد انجلاء أزمة كورونا تمامًا، وكان سبب الإغماء هبوطٌ حادٌ في ضغط الدم.

وتبديدًا للقلق انتظرت قليلًا بعد مصادفتي إغلاق هاتفه، ثم عاودت الاتصال مرارًا وما زال الهاتف مغلقًا، فتناقم قلقي، ودخلت عليّ ابتي ربما فحدثتها بالأمر وما أنا فيه من الحيرة والقلق، ثم جاء البقية، وهم واجمون متسائلون، فاتصلتُ بأخته الكبرى، وكان أفراد العائلة يجتمعون في الصيف وكانت معهم هناك، فلم تجبني الكبرى فشككت أن في الأمر ما يقلق، واتصلت مباشرة بأخته الثانية المعروفة بيننا بتجلدها في المواقف

الأيمة، فأجابت وكان صوتها هادئاً لكنه لا يشي بخير، فسألها عنه فأخبرتني أنه في مجلس الرجال، وكان من عاداتهم إعداد غداء عام كل جمعة، وطعمنتني على صحته، قائلة: ربما نفذ شحن هاتفه ولم يتبه له. فلم أطمئن وهاتفْتُ أخي وبحثُ له بحيرتي وشكوكي فأخبرني أنه ذاهب إليهم للغداء، وسينظر ما الخير ويجييني، فاستحلفتة بالله أن يصدقني والقلق ينهش قلبي، وبناتي وأبنائي يجلسون حولي وعند أقدامي، وكلنا بلغ به التوتر كل مبلغ، فهاتفني أخي قائلاً إن إبراهيم تعب قليلاً ونقلوه في سيارة الإسعاف إلى المستشفى وأنه سيذهب إلى هناك ويحدثني، فظنته أصيب بهبوط ضغط حاد كالمرّة السابقة، ومع ذلك فقد أخذتُ أستحلف أخي مرة بعد أخرى أن يصدقني ولا يخادعني أو يخفي عني شيئاً، فوعدني بذلك، وكنت وقتها أجلس على المقعد في غرفتي، فعلمتُ أنني سأجن من القلق إن أنا بقيت مكاني، فنهضتُ من لحظتي إلى سجادة صلاتي في الغرفة نفسها، وتجمّع حولي الأولاد وأنا أسجد وأدعو، وأبتهل، وبين الحين والآخر أتصل بأخي، فيخبرني أنه مازال في الطريق، واتصلت بعدها فقال: وصلت، وسأدخل المستشفى، ثم اتصل بي قبل أن أتصل به فسألته مباشرة عن إبراهيم، وكان الجواب: ادعوا له بالرحمة! فضممت إلي أبنائي وبناتي وكانوا ملتمين حولي وقلت لهم ادعوا لأبيكم بالرحمة، ولا تُروا من الله ما لا يرضى، فكوا بحرقه وأغمي علي ابستي رهف، وألهمني ربي وقتها أن قلت: اللهم أجرنني في مصيبتني واخلفني خيراً منها. وللحظة وأنا أضممهم إلي كاد أن يهجم علي رعب مواجهة الحياة دون إبراهيم، وأنا أم لسبعة كلهم ما بين من الصبا والطفولة، فتذكرت قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء ٤٢].

وانزل الله على قلبي سكرة لم أعهد لها، أما التي كانت تستيقظ فجأة من نومها لسنوات وتهز زوجها بسرعة وقوة للتأكد من أنه ما زال يتنفس، فقد كنت مسكونة بها جس فقده مذ قرأت ذات مرة أن مريض التصلب قد يموت فجأة، حتى اعتاد إبراهيم قلقي، ولم يعد يُعلق أو يتساءل إذا هزرت.

كنا وحدنا ذلك الصيف في الرياض عندما تلقينا خبر الوفاة، فجاءني عمي، وجاءتني بعدها خالتي وابتها، ولحقتهم جارتني، وبعدها صديقتي في الماجستير، كنت أذكر الله، وابتي نور تغمض عينيها طوال الوقت، وكأنها لا تريد أن تصدق ما حدث، ولسانها لا يفتر عن ذكر الله.

كان البيت هادئاً، والكل يبكي بصمت، وأخذتُ أتلقي العزاء مهاتفة، وكانوا قد أجروا لنا حجوزات عاجلة للسفر عند الصباح لتلك المدينة الصغيرة التي كنت قد تأخرت لكلاً أثقل على من يصحبنا منها !

وفي ليلة السفر زارتني زميلتي في العمل وقالت: لم أستطع النوم وأما أفكر بك، فأيقظتُ زوجي قائلة: خذني إلى ملاك.

سافرنا صباحاً مع عمي واستقبلنا أخي في المطار ليصحبنا إلى المدينة، وكنا نبكي طوال الطريق دون صوت، وابني سعد ذو الستين في حضني مبتهجاً بالرحلة ولا يفقه شيئاً مما يدور حوله.

وكانوا قد أخبروني أنهم يتظروننا في مغسلة الموتى الملحقة بالمسجد لنودع إبراهيم قبل أن يودعوه قبره، فوصلنا واصطحب أخي أبنائي عمر وسعد إلى بيت شقيقتي هلا، لكلاً يريا أباهما بهذه الحال، ودخلنا وعمي الآخر إلى المغسلة، وكان الجميع قد سبقنا إليها، وإبراهيم مسجى هناك، وكان عمي الكبير يحوطنا ويرعانا ببصره ويستعجلنا خشية انهيارنا،

فتقدمتُ إلى إبراهيم وورائي بناتي وقبلتُ جيبه للمرة الأخيرة، وشممته
للمرة الأخيرة، ومسحت على شعره للمرة الأخيرة، أنا التي من كثرة ما
كنتُ أتأمله وأداعب شعره اكتشفت إصابته بالثعلبة مرتين، وكانت بقعًا
صغيرة لا تكاد تلمحظ وتفادها في المرتين، أنا هي ذاتها.. أنا التي كان
عليّ أن أودعه الآن للمرة الأخيرة، وأحتفظ بصورة وجهه تلك فلا
تفارقني ما حييت.

لحظة الفقد/ البئر

صدمة الفقد ووحشته

كل دهر يمر يفجع قلبي
ليت شعري أين الزمان الموثق

أبو القاسم الشابي

تألفت الأرواح دون أن يتزعزع الائتلاف من أصحابها استقلالهم الذاتي، وهكذا كل روحين اتلفتا وبقيت لكل من صاحبيهما مساحته الخاصة وإنجازاته واختياراته المتناغمة مع صاحبه. وقد يبلغ الشعور بهذه الاستقلالية ببعضنا حذًا يشكك معه في فكرة الالتصاق بروحه الأخرى، وما هو إلا أن يفتننا الفقد فيوقفنا من وهمنا، وإذا بنا قد بُرنا وتشظينا، حتى لم نعد نملك احتمال حالة البشر ولا التشظي، فما فُقد لا بديل له، ولا إمكان للعيش بدونه، وإذا بعالمنا يتداعى، وتتداعى معه ظنوننا وتصوراتنا السابقة عن ذواتنا.

وهكذا كنت، مبعثرة مبددة بعدما ودعت إبراهيم ورجعت من عنده لأدخل البيت الذي كان قد أعدّه لنا لقضاء الصيف قرب والدته، فتسمرت مكاني دون حراك؛ إذ كان كل شيء في البيت، كل قطعة أثاث، كل حائط، كل نافذة، وكل راوية صوّرها لي تظعن خجراً في صدري.. فأشحت بوجهي ودخلت إلى غرفة النوم وبدلت ملابس، وأخواتي يتظرني في غرفة الاستقبال، فذهبت إليهن وجلست وأنا أتأمل وأحدث نفسي: هل كان إبراهيم ليتخيل أنه يؤث بيتاً لن يجمعنا به؟ بيتاً مستلقى فيه العزاء برحيله!

كان الناس يدخلون ويخرجون وأنا صامته واجمّة، وبعد انقضاء
النهار ومجيء الليل أخبرني أخي أن أبي ينتظرنى في الطابق السفلى لأنه
لا يستطيع الصعود إليّ، فتزلت لملاقاته ووجدته جالساً على كرسي في
آخر الردهة، فاقتربت والتقت عيني بعينه فابتسم لي ابتسامة المتألم، وما
أن وجدتني أمامه حتى ارتعيت على صدره وانفجرت بالبكاء! بكاء لم
أبكه من لحظة تلقي خبر الوفاة، وكأنه قد حلّ لي الآن فقط أن أبكي!
فأخذ أبى يهدئ من انفعالي ويمسح على ظهري، ويقول: لا يا ملاك
ليس هكذا.. ظننتك قوية فلا تخيبي ظني، لا تبكي يا ملاك، تماسكي،
لا تفعلين بنفسك هكذا.. لكنني بكيتُ حتى غاض دمعى، ثم رفعت
رأسى وقبلت وجته ورأسه ويديه، وقلت: الحمد لله أنك هنا!

كان أبى وحده من قال لي لا تبكي، في حين كان الآخرون يحثونني
على البكاء، أبك، لماذا لا تبكين، البكاء رحمة، وكأنه كان بمقدوري أن
أبكي وقتما شئت، أو كأن قيمة الفقد تقاس بقدر ما نسكب عليه من
دموع لحظة الفقد!

كنت أفتقد أمى رحمها الله وظللت أفتقدها طيلة الوقت، وتمنيت لو
كانت بجوارى في هذا الوقت، لأسكن إليها، لأبكي في حضنها، لأنام
بجانبها، لأحدثها عن خوفى من مواجهة الحياة دون إبراهيم.. ثم أعود
فأتذكر كلاءة الله عز وجل، وأجمع شعثى فأسترجع وأستغفر وأحمد الله؛
فقد كنا نرفل في نعم الله والطفاه العظيمة رغم كل شيء، وكان الجميع
حولنا، وأهل إبراهيم يحيطون بنا إحاطة من يُحاذر أن يחדش الريح لنا
طرفاً، ولم أكن لأحمل همّ شيء إلا ووجدتهم يسابقون لكفايتي إياه،
وهكذا كان إخوتي وأخواتي.

كانت أختي وخالتي تبتان معنا، ومع ذلك فقد مرّت عليّ أربعة أيام بلا نوم تقريبًا، وكانت أختي هلا تلازمي وتنام معي في السرير نفسه، وإذا استيقظت ووجدتني مستيقظة سحبت يدي نحوها وأخذت تقبلها وتتوسل إليّ أن أنام، وكنت أجيبها بإشارة من رأسي أن سأفعل، فقد استفرغت طاقتي بالكامل ولم تعد لدي قدرة على الكلام.

وفي اليوم التالي جاءتني إحدى بناتي وبين يديها آخر لباس لأبيها كان قد تركه معلقًا في غرفته في منزل جدتها، فأخذت قطعة منه لعلّي أستطيع النوم إن أنا شممتُه واحتضنته، فأثارت رائحته الحبيبة شجونًا وطمأنينة معًا، لكنني لم أنم، وأقلق هذا إخوتي وحاولوا إقناعي بتناول منوم لئلا أسقط منهارة لشدة الإنهاك، فرفضت تنويمي لأي سبب كان، وبعدها أخبرتني أختي أن أحد إخوتي هانفها وطلب منها وضع المنوم لي في كأس ماء، لكن أخي الآخر هانفها بعده وقال لا تجبروا ملاك على شيء ولا تعطوها أي منوم دون رغبتها، وبقيت أقدر لأخي هذا موقفه، مع تفهمي لقلق الأول وخوفه عليّ.

كنتُ مستنزفة وكان كل شيء غاية في الغرابة.. وجلست هناك مذهولة وصامتة معظم الوقت، بقيتُ في البيت ولم أذهب للعزاء في منزل والده رحمه الله، وامتلات مجالس البيت بالمعزيات اللائي كنّ يقضن العزاء لوالدته وأخواته في منزلهم المجاور، ثم يجئن لتعزيتي، وكان أمرًا عرييًا رؤية كل هؤلاء بعد حجر الجائحة وهدوئها المخيف.. بدت لي هذه الكثرة المفاجئة مخيفة مثلها.

وفي اليوم الخامس من الحداد أتاني أحد الأقارب المشتركين لي وإبراهيم ومعه رسالة في الجوال كتبها أحد الأنساب وطلب منه إطلاعي

عليها، فأعطاني قريبي هاتفه لقراءتها، فإذا هي تتضمن نصائح وتوجيهات حول تمكين أعمام أولادي من الإشراف على الأولاد، وأمور أخرى لم يكن الوقت ملائمًا لإثارتها والتحدث بها، وليس هذا فحسب فقد أثرت مسألة الانتقال من الرياض إلى الشمال، ولم يكن الوقت ملائمًا لمناقشة تلك الموضوعات أيضًا، فلم أكن في حال تحتمل مجرد التفكير فيما أنا فيه من مصاب، فضلًا عن التفكير في أية تغيرات تمس كيان أسرتي أو تتسبب بانعطافات مفاجئة في مسار حياتنا بقرارات ارتجالية كهذه وغيرها، وبعد أن كنت مذهولة صحوته على هذه الأحاديث المتعجّلة والمقلقة، وشعرت لحظتها بالانتهاك والاستباحة، أبهذه السرعة أصبحت حياتنا الخاصة حقًا مشاعًا للآخرين! أنا التي حافظت على خصوصيتها كل هذه السنوات، أراها وقد أضحت فجأة بلا أستار ولا أسوار تحميها من تدخلات الغير!

وأصبّت بنوبة هلع لينتها، ولم أخبر أحدًا بها ظنًا مني أنها لن تتكرر، لكنها تكررت لعدة أيام، كنت أشعر فيها بقلبي يكاد ينفلت من صدري فأصم ذراعيّ إليه لعله يهدأ.. وكنت قد أصبتُ بمثل هذه النوبات قبيل وقت الاختبارات أثناء دراستي لنيل درجة البكالوريوس انتسأتًا، وسافر بي إبراهيم وقتها إلى عمان ووصف لي الطبيب علاجًا فشفيْتُ منها. لكنني لم أرغب بالخروج إلى المستشفى بعد وفاة إبراهيم، ولا مقابلة طبيب، ولا تناول أي شيء يمكن أن يؤثر تناوله في وعيي ويشعلني عن أولادي.

ولم تتوقف نوبات الهلع بطبيعة الحال، وعندما بلغ إجهادي متناه، قمتُ إلى سجادة الصلاة في آخر الليل، وصليت ركعتين في خوف

السلام، لا أدري كم طالت، لكتتي أذكر أنني بقيت أردد سورة الإخلاص
واسم الله (الصمد) مستحضرة المعنى القائل (أنه من تصمد إليه الخلائق).
كنت أرددّها وأبكي بلا نحيب، ولم أشعر بحرقه تلتهم وجهي ورقبتي
كحرقه دموعي تلك الليلة، استشعرت وهني وشأتي وهشاشتي، ولجأت
إلى قوته ورحمته وحنانه سبحانه، ولم تعاودني بعد تلك الليلة نوبة هلع
ألبته.

الجسد الغريب

يجتاحني خوفُ العاصفِ التي
نسيت مدى التحليق من أن تُطلقاً

سعود اليوسف

لم يكن للفقد أحزانه فحسب، بل كان له غرائبه ومفاجآته أيضاً، وفي الأيام الأولى منه، اعترتني رغبة عارمة وغريبة بتغطية الأجزاء الظاهرة عادة من الجسد كالذراعين وشيء من الساقين، ووجدتني أواجه إرباكاً في علاقتي بجسدي، فبتُّ لا أنام بشباب مخصصة للنوم بل أرتدي ثياباً بأكمام طويلة، وأقمشة غير مريحة للنوم، وإذا ما رفعت أكمامي للوضوء تأملت ذراعيّ بشيء من الاستغراب وفقد الشعور بالحماية، وكنت أتفادى النظر إليهما، تماماً كما تفاديت النظر قبلها إلى وجهي في المرأة لأنه يذكرني بإبراهيم.

وبعد أن كنت أدقق في خياراتي لملابسي ومظهري وشعري قبل أن أخرج من غرفتي طيلة سنوات مضت، أصبحت ألتخط أي لباس يصادفني عند فتح خزانة الملابس وأرتديه، وبعد أن كنت لا أكرر لباساً ليومين متتاليين أصبحت أمدُّ يدي وأتناول أي لباس كنت قد ارتديته قبلها بيوم وعلقتَه على المشجب، ولأنني هجرت النظر للمرأة فلم أنتبه أنني كنت أرتدي ملابسِي التي التقطتها من المشجب أحياناً مقلوبة حتى تنبهني إحدى بناتي أنها كذلك!

وكنت إذا أويثُ إلى فراشي في تلك الأيام أجمع بعضي إلى بعضي

والتفتُ على نفسي في وضعية تشبه وضعية الجنين في بطن أمه، دون أن يشعرني هذا بالاحتواء، فقد كان شعور المتكؤم على نفسه في بيدها ظلماء قاحلة، لا صاحب له فيها ولا أنيس.

وعندما عدت وأولادي إلى الرياض وتعطلت إحدى الكاميرات الأمية للمحيط الخارجي للمنزل أخذ القلق يفرسني، ولم أكن معتادة على التنسيق مع الفنيين والعمالة عمومًا، فاتصلت بأخي وطلبت منه الحضور إلى الرياض لمعالجة الأمر فعل، ولم يسكن قلقي حتى عادت الكاميرات إلى العمل من جديد.

ويلع شعوري بفقدان الحماية، والذي استمر لأشهر من الوفاة حدثًا جعلني أرتجف فرغًا عندما ذهبتُ مع ابنتي إلى متجر (إكسترا) لابتلاع بعض الحاجيات من هناك، فتركني السائق الذي كنت قد نقلت كفالته إليّ مؤخرًا وقفل عائداً إلى المنزل، وكنت قد أوصيته أن يتظرنا ولا يغادر المكان حتى ننتهي ونخرج إليه، لكنه لم يفعل وغادر وتركنا ننتظر، فهجم عليّ القلق، على أن لا شيء يدعو إلى القلق والتوتر، فالمكان ليس بعيد، والسائق جديد وربما أخطأ التقدير، أو لم يفهم المراد، أو أي سبب آخر، لكنني لم أكن مستعدة للتعامل مع هذا النوع من المفاجآت وإن كانت صغيرة ومعتادة.

فصدمة الفقد تخلف إحساسًا بالانكشاف ولا أقول شعورًا بالانكشاف فحسب، بل إحساس بالمعنى المادي أيضًا، والانكشاف مُشعرٌ بعدم الأمان.

وقد أدى ذلك الشعور بالانكشاف إلى رد فعل عكسي، تمثل في ارتياحي في الآخرين وفقدان الثقة بأحكامي عليهم، وأصبح شعوري

بأنني مرئية حتى النخاع مصدر قلق لي، وخشيتُ أن يبصر الآخرون مواضع ألمي، والثقوب التي خلفها الفقد في قلبي، فيلجئون منها إلي، وتفاقم خوفي من أن أصبح كجرح مكشوف معرض للإصابة بأي صنف من صنوف الأذى، خشيتُ من التسمم بالشك وسوء الظن في سلوك الآخرين تجاهي، خشيت من استغلالهم كربي، وخشيت من التعلق المرَضِي بالأشخاص، فدفعتنِي هذه الشكوك والمخاوف إلى دفع من يحاول الاقتراب مني بعيدًا.. بعيدًا..

واستمرَّت هذه الحال أشهرًا فلم أكن مستعدة في تلك المرحلة لعقد صداقات جديدة، أو المشاركة في مشروعات معرفية، وكان الاعتذار عن المشاركات الثقافية، وإعدام أية صلة جديدة بعد وقت قصير جدًا منها، هو الإجراء الحاسم الذي كنت أنهي به كل محاولة للاقتراب من ذاتي المعذبة، وكانت العزلة المتكررة من وقت لآخر شكلاً من أشكال حماية الذات من كل صور الانتهاك المعنوي المتجيلة.

برزخ بین حیاتین

اغتراب

الريـحُ مزَّقَت الشراعَ

فأين يضربُ زورقي؟

والموجُ أطفأ ضوءَ مصباحي

فماذا قد بقي؟

فأزك الملائكة

أن يتقل الإنسان من أسلوب حياة مُعيَّن إلى آخر، يعني أن يتخلى أحدهنا عن جزء من عاداته وما طبعه عليه نمطه السابق، ليدخل بإرادته في خضم جديد لم يألفه بعد، لكنه وطَّن نفسه على تحمل تبعاته. وعندما يحدث هذا الانتقال جبرًا، أي بغير إرادة الإنسان واختياره، تسمى النقلة أعسر منها اختيارًا، فالصدمة قد أكلت منه ما أكلت، ولم تفسح له وقتًا للتهيؤ لما سيقابله، ولولا نعمة الاعتصام بالله واللجأ إليه وطلب العون والتسديد والقوة منه، لما ملك أحدهنا احتمال حدة هذه النقلة الهائلة.

وشتان ما بين فقد وفقد، فإذا كان الزوج اتكاليًا ومفرطًا بواجباته تجاه أسرته، ويَحْمِل زوجته العبء الأكبر من واجباته فضلًا عن واجباتها الخاصة وواجباتهما المشتركة، فحينها يصبح فقد الصاحب شكلاً من أشكال الخسارة الخاصة، لا انهياراً للحياة بكاملها كانت تنكس عليه فإذا اجتمع إلى هذا وجوده الوهاج في أسرته كان فقدُه تبددًا وانقطاعاً لا انهياراً فقط!

والاشتباك بالحياة وتحمل مسؤوليات أسرته قاطبة، ومواجهة مواقف

لم يسبق لي خوضها، هذا ما كان بانتظاري، وأن تفقد عزيزاً ثم لا تمنحك الظروف الوقت الكافي لاستيعاب الفقد، وتدفئك لعيش تجربة لم تفلك يوماً ستخوضها، هذا ما كان علي تقبله باعتباره قلراً وخياراً، قلراً لا قرار منه، وخياراً لم أكن لأتردد في الإقدام عليه.

والمزيج العجيب الذي وجدتني فيه على أرض الواقع، انعكس في حافظة الصور في هاتفي الجوال وملحوظاته، حيث جمع هاتفي صور الكتب والملحوظات والفصاصات البحثية جنباً إلى جنب صور وملحوظات ووثائق ومنتجات خاصة بالسوبر ماركت، والصيدلية، وورشة إصلاح السيارات، وقطع الغيار

والأكثر إثارة للسخرية هو لغتي التي أشعرني بحجم المسافة بين مكتبتي وعالمي السابق بكل تفاصيله، وبين واقع التعامل مع الآخرين من مقدمي الخدمات المختلفة في المتاجر، والورش، والمؤسسات، والبنوك.

فقد كنت أنعامل سابقاً مع عالم أشكله وأعيد صياغته وتأويله وفقاً لمتطلبات ومعايير نظرية غالباً، عالم قابل للسيطرة والضغط، فوجدتني في قلب الموجة وعلى أجنحة العاصفة وبين يدي الريح.. مصطدمة بعالم مفارق، تحكمه عناصر عديدة، عالم متحرك بعير نظام أعرفه، عالم لا مكان فيه للعتي ولا يتقبل أشكال الحجاج التي تعودتها.

وإن كان من معنى للاغتراب هنا، فقد وجدتني أنماع فيه بكلي.. وأتساءل هل كان العيب في نمط الحياة المريح الذي كنت أعيشه؟ أم في اندماجي بالمعرفة وأهلها إلى حدّ إعاقتي عن التواصل الاجتماعي الفاعل مع طبقات متباينة وشخصيات لم تكن مرتبة لي من قبل؟

هل كان لزواجي المبكر وإفراط أسرتي في حمايتي من مواجهة العالم الخارجي قبيحاً صباي، وانتقالي بعدها للعيش في كنف زوج لم يكن يكلفني بأي مسؤولية تتعلق بدنيا الناس، أكان لهذا كله أثر في انفصالي عن ذلك العالم حد الاصطدام بخبرتي السطحية بتفاصيله الواقعية؟

وهل كنت متواطئة مع هذا الوضع المريح لانسجامة مع طبيعة شخصيتي القارئة والباحثة والكاتبة؟ كانت تلك التساؤلات تلتف حولي وتشد من قبضتها عليّ كحبل مشنقة!

ولأنني كنت شديدة الأنفة وأتحمس من الإثقال على الآخرين مهما كانوا مقربين مني، فقد كنت أئنم عندما أضطر لطلب أية خدمة يسيرة، وإن كانت على سبيل الاستعلام عن كيفية أداء إجراء ما مثلاً، لكن ظروف الطارئة أجبرتني على هذا الأمر، واضطرت للتعايش مع التضاد ما بين مشاهري وواقعي، أو رغباتي واحتياجاتي، وهذا أيضاً أشعرني بالاغتراب عن ذاتي السابقة.

الحداد .. فرض النسيان

ستكونَ وحدكَ قدرَ ما لم يحتمل

أحد، ولو كان الجميعُ معيّنك

أحد بغيت

يبدو أن البحث في أدبيات الحداد عند المرأة بحثٌ في المفقود، وغاية ما ينتهي إليه البحث هو أحكام فقهية، وترجيحات، ودفع أوهام وتصورات وعادات شعبية خاطئة؛ إذ لم أصادف فيما قرأت من الكتابات العربية في العقد شيئاً يتصل بالذات الممثلة للأحكام والمتعرضة لتغير أوضاعها الاجتماعية والقانونية والنفسية، وتحيا تجربة مركبة وجدائياً واجتماعياً ولا تقتصر على الفقد العاطفي فحسب؛ وبدا لي أن صمت النساء حيالها غريب وكأن الحداد فترة محكومة بالنسيان مسبقاً.

وفي حوار مع إحدى أستاذاتي عن أدبيات الحداد، سألتها عن تدوين تجربتها في فقد زوجها، فأكدت العكرة نفسها: دفن الأفكار والمضي قدماً.

رغم أن هذا المصّي والإغصاء عما تواجهه الأرملة في هذه المرحلة لا يعدو في تجربتي من أن يكون شكلاً من أشكال التظاهر والإنكار الذي نسلكه دون أن نكون على وعي عميق به، وكأنه وسيلة من وسائل حفظ الذات من التردّي في هاوية التذكر، تماماً كما اختصرته جوان ديديون بقولها: العودة إلى الوراء هي ما يُتيح للحياة أن تُطبخ بك.. أن تسحقك!

وفي عدة الوفاة لم أنشغل بما يجوز وما لا يجوز للمعتدة من أحكام أو ما يباح لها إتيانه من لباس وتجميل وما يتصل بهذه الأمور التي كنت قد درستها في كلية الشريعة ولا تخفى على أي دارسة للمقه، أو من عاشرت خبرة الحداد مع قريبة أو صديقة، على أنني لم أواجه ما يدفعني لاستحضار تلك الأحكام التفصيلية أصلاً، رغم أنني لم أعاش حداداً من قبل، فالوفاة الوحيدة التي تفتح وعي عليها كانت وفاة جدي لأبي رحمه الله، وكنت وقتها في الخامسة من عمري، ولا أذكر شيئاً منها عدا كثرة المعزين والمعزيات الذين قدم كثير منهم مع أطفالهم من المدينة المنورة وينبع وأملج ونواحيهما، وكنتُ منشغلة بالتعرف إلى صغيراتهم واللعب معهم، ثم توفي جدي لأمي رحمه الله وكان قد انتقل مع عائلته إلى مدينة الخبر في المنطقة الشرقية بعد سنوات من وفاة صديقه جدي لأبي، وكنت وقتها في العشرين من عمري، لكنني سافرت مع أمي وزوجي رحمهما الله لعزاء أخوالي وخالاتي هناك وقيتُ أيام العزاء الثلاثة ثم رجعت وإبراهيم وقيت أمي عند جدتي أشهر حدادها، أي أنني لم ألحظ ما كان يحدث، أو كيف تقضي المعتدة هذه المرحلة البرزخية بين مرحلتني ما قبل الفقد وبعده.

وغاية ما كان يشغلني بعد وفاة إبراهيم هو الأوضاع النفسية لأفراد أسرتي، ومصير إبراهيم الأخروي بالاطمئنان حول ما يتعلق بذمته المالية وتفقد ما قد يكون عليه رحمه الله من التزامات أو ديون قديمة أجهلها، وأما ما يتعلق بمظهري وبقية الأمور فلم أكرث بها، لا لمعرفتي بما يتصل بها من أحكام فحسب، بل لأنني كنت عازقة عنها بطبيعة الحال. ومع ذلك فلم تخلُ مجالس العزاء وما بعده من الموضوعات المتعلقة

بأحكام المعتدة، ومن ذلك ما أثارت إحدى المعزيات حين زارتني بعد وفاته رحمه الله بشهرين، وسألتني عن حكم احتساء القهوة بالزعفران للمعتدة المعتادة على تناول القهوة منكّهة به وقد تعاني صداعًا بإقلاعها عنه، وأذكر أنني تحدثت معها عن الحكم من ناحية تفرقة الفقهاء بين الزعفران المطعوم وغير المطعوم كالمستخدم في الأطياب قديمًا، واختلاف حكم الأخير عن الزعفران المطعوم.

كنت أحدثها عنه في الوقت الذي فقدت فيه الاستمتاع بمذاق الأكل والشرب وتساوت عندي النكهات، وما أتناوله كان قوت من يتقوى للقيام بمسؤولياته لا أكثر.. فمن كانت مثلي لا تملك رفاهية التساؤل حول فروع كهذه، مثلما لم تملك الاستغراق في أحزانها الذاتية وغض النظر عن أولادها، لقد كنت ذاهلة عن هذا كله، وكنت ساعتها أشبه بطير جريح يفرد جناحيه ليحمي بهما صغاره.

وقد بدأت فيما يتحتم عليّ من إجراءات في بدايات تلك الفترة، كاستخراج صك ولاية على القصر من بناتي وأبنائي، واستصدار سجل أسرة جديد، وإجراءات أخرى تتصل بالأوضاع القانونية المتغيرة بعد وفاة الزوج، كرتيبات تصفية الحقوق المالية من الشركة التي كان يعمل فيها رحمه الله، وما يتعلق براتب المتوفى، وقد نهضت لهذا كله، وتجلدت لإنجازه بحذافيره، في وقت لم تكن فيه أئمة كل تلك الإجراءات اتخذت شكلها الحالي.

وأفرغ الله عليّ حونا وصبرا، وظننتني تجاوزت القنطرة، لأنني تمكنت من التعامل مع إبراهيم بوصفه متوقيا، وتمكنت من استعمال ضمير الغائب الذي ما كنتني أنخيل أن أستعمله عندما أتحدث عنه، لكنني لم

أدرك هشاشتي الداخلية حتى أرسل لي أخو زوجي سجل الأسرة الجديد،
وقد أزيلت منه صورة إبراهيم، ووضع محلها مربع فارغ كُتب وسطه
كلمة (متوفى) وكتب بجانب اسمي (أرملة)!

كنت أضعف مما أتصور، وفاق تأثيري وألمي احتمالي وقتها، فإزالة
صورة إبراهيم واجهتني بواقع حتمي ملموس بأن (إبراهيم لم يعد هنا)..
وليس ثمة شيء يملأ مكانه.. ليس إلا الفراغ!

وأما وصف (أرملة) فقد عني لي (البتر) وما قد حصلت على وصف
(مبتورة) فالترمل قطع ونقص وتجريد من طرفك الآخر، في حين أن
وصف البنوة والزوجية (صلة) ووجود وانتماء إلى طرف آخر، وقد
جعلني وصف أرملة في مواجهة واقع الفقد، وكان نوعاً رسمياً لحياتي
السابقة في الوقت نفسه.

سلطان الاعتیاد وعذابه

أخاف أن لمطر الدنيا ولست معي
فمنذ رحمت وعندي عقدة للمطر..

نزار قباني

قلتُ مرة: من لم يتمكن من استرداد عاداته قبل الفقد لم يتعاف منه
بعد... ومن استردها بسهولة، فلم ينشب الفقد أظفاره بأعماقه...!

ولستُ أبالغ إن قلت إنني بئُ أغبط من يعيشون زواجًا غير مثقل
بأعباء القلب وروابط الصداقة وأكوام الذكريات الحميمة، زواجًا لطيفًا
خفيًا يمكن لطرفيه استئناف الحياة بعد انتهائه بأقل ما يمكن من أوجاع
الفراق، بل وصلتُ مرحلة بئُ أغبط فيها أولئك الذين تضحل ذاكرتهم
تحت تأثير فكرة البقاء الداروينية، فيبدلون الأشخاص كما يبدلون الثياب
والأحذية والمستحضرات، وأولئك الذين يفلسفون التجاوز بشتى الطرق
ليُجسروا الهوة بين ما يعلمون وما يشعرون!

صدقًا، بئُ أغبط أولئك الذين أقصى ما يدركونه من الفقد هو البعد
الجسماني فقط، ولا يدركون فقد ما تمازج بأرواحهم، وأنى لهم ذلك،
ولم يك ثمة تصور ولا عيش حق لهذا التمازج! فلمثل هؤلاء يسهل خلع
حياة وارتداء أخرى، في حين لم يبقَ لغيرهم سوى التطلع إلى بلوغ لحظة
الاعتیاد لا غير.. اعتیاد بترهم وتشغيلهم وتناهيهم.

وعندما يتشارك الزوجان عادات معينة يصعب جدًا على أحدهما

ممارستها دون حضور الطرف الآخر، وكم تشاركنا وإبراهيم من عادات وثقّت صلتنا ببعضنا البعض، وجعلت من عذابات الفقد محاولة التليّن بالعادة دون وجود طرفها الآخر، ويبدو أن العادة كبيت يجذب إليه ساكنه وإن لم تكن سكناه مخططاً لها، وكانت عاداتنا تتخلّق رويداً رويداً، وبأشكال مختلفة، وربما هيأت لها بعض الظروف أن تنشأ وتنمو وترسخ، إذ عشنا بعيداً عن عائلتيّنا في السنة الأولى من زواجنا؛ ولما كان إبراهيم يكبرني بست سنوات فقد تخرج من الجامعة قبل موعد الزفاف بعام، وتقدم بطلب وظيفة في أقرب منطقة لأهلنا عندما لم يحظَ بوظيفة متاحة لتخصصه فيها وقتئذ، فعُيّن في شركة الكهرباء بمدينة تبوك، وهناك سكنا أول شقة تجمعنا تحت سقف واحد، وهذا البعد المكاني هو ما وثّق صلتنا ببعضنا البعض.

وكان من عاداتنا في عطلة نهاية كل أسبوع من بداية زواجنا الخروج في هدأة الليل والتجول في السيارة لساعات، لا نتحدث فيها إلا قليلاً، ونحن نستمع لأغاني فيروز بعد أن رُحّلناها إلى صوت ليلى، وكنا نختار لذلك طريقاً من طرق السفر بين المدن، لا يقطعه شيء، وغالباً ما كان (طريق تبوك-المدينة). كانت عادة بسيطة لكنها عمّقت ارتباطنا، واغتناء أحدنا بوجود الآخر إلى جانبه، ورغم التوقف عن الاستماع لفيزوز ليلاً فما زال صوتها وهي تغني (سواريينا.. سواريينا.. سواريينا ليالينا.. معقول القراق يمحي أسامينا، ونحنا.. نحنا سواريينا) يتردد صدها في سمعي كلما استعدت ذكرى جولاتنا في تلك الليالي.. والطريف الأليم ألسنا كنا نواصل الخروج معاً حتى وإن كنا متخاصمين.

أما عادة القراءة المشتركة فقد دخلت إلى حياتنا تدريجياً، وبدأت في

فترة الملكة (عقد القران)، التي تمت بعد ستة أشهر من الخطبة واستمرت لسنة ونصف بعدها، وكنا لا نلتقي خلالها إلا في وقت الإجازات الدراسية؛ إذ كان يأتي لزيارتي ويجلس معي لساعتين، ثم تضاعفت الساعتان إلى أربع، ثم أخذت تمتد لساعات طويلة كلما اقتربت الإجازة من نهايتها، محاولاً ألا تضيق منها ساعة دون رفقتي، فأثار هذا غيرة إخوتي، فأفصحوا لأمي عن اعتراضهم على جلوسه الطويل عندي، رغم أنني زوجته على الحقيقة وإن لم أزد إليه بعد، ورغم أنه لم يكن غريباً وإنما هو ابن عمي الشقيق لوالدي والمسمى على اسمه، ورغم أن إخوتي كانوا يأتون لمجالستنا باستمرار.

لكن أبي كان شديد الوضوح في موقفه الرافض لتحديد وقت جلوسنا معاً، فقد منعه جدي لأمي رحمه الله من عقد القران قبل الزفاف وبقي أبي يذكرها له متأسفاً لحرمانه من تلك المرحلة، فلم يرغب أبي بحرمانني منها، وقد بقينا نتذكرها أنا وإبراهيم حتى سنواته الأخيرة معي، وكان أبي حريصاً على مصلحتي، فرغم أنه كان ابن أخيه الشقيق، ورغم موافقتي على الزواج، فقد اشترط أبي في عقد الزواج تمكيني من مواصلة الدراسة والوظيفة بعدها، وقال لي: قبل عقد القران: ما من رجل يعقد قران ابنته قبل سنة ونصف من الزواج إلا وهو يشق بحكمتها حق الثقة وأنا أثق بحكمتك يا ملاك. ولم يكن هذا بغريب على والدي رحمه الله فمنه استمددت العزم والطموح والمثابرة، فقد أصيب أبي بالحصبة في الثالثة عشرة من عمره وفقد سمعه بسببها، وأجريت له عملية جراحية في أذنه المرجوة في القاهرة وكانت نسبة نجاح العملية ضئيلة فباءت نتائجها بالفشل. فاستعان بالسماحات الخاصة بالصمم، وعاصر كل أنواعها بدءاً من سماعة الجيب وحتى آخر سماعة سافر إلى باريس من أجل الحصول

عليها، وكانت سماعة صغيرة توضع خلف الأذن ولا تكاد تلاحظ، وبسبب السمع تعرض والدي للتنمر، وبسبب السمع لم يتمكن من مواصلة دراسته أول الأمر، ثم عاد للدراسة وطوى الثلاث السنوات في سنتين، وعمل وتزوج من أمي وواصل الدراسة انتساباً في قسم علم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز في جدة، وتخرج لاحقاً ليحاول مواصلة الدراسات العليا انتساباً لكنه تعثر بعدم إتاحتها انتساباً حينذاك.

وبعد رفض أبي تحديد وقت مكث إبراهيم معي وقت الإجازات، كان إبراهيم يأتيني الخامسة مساءً، ولا يخرج أحياناً إلا الساعة صباحاً، وكان وقتاً طويلاً، اعتدنا أن نتناول خلاله وجبة العشاء سوياً ووجبات خفيفة متفرقة، وكنت وقتها أحجل من الأكل أمامه فكنت أتناول البير، وبعدما يغادر أركض إلى المطبخ مباشرة وقد قتلني الجوع فأفتش عما كنت قد تركته سابقاً في طبقي، أو أبقته لي أمي، أو أية حلويات أو موالح تصادفني.

وخلال ذلك الوقت كنا نتشارك أشياء كثيرة من بينها قراءة الشعر، فقد كان يحب أن يقرأ لي الشعر، وكان بارعاً في إلقائه فكنت أستعذب هذا الوقت، وشيئاً فشيئاً حرأني على قراءته له، وأصبحنا نتداول الدواوين، وكان مثلي محباً للشعر الحديث، ولم يكن قد اكتشف بعد أنني محبة للأدب الروائي العالمي، وحدث هذا مصادفة عندما عاد أخي الأكبر من سفر إلى عمان، وجاء للسلام على إبراهيم لما رأى سيارته أمام الباب، وبين يدي أخي ثلاث روايات أحضرها لي من سفره، فرأى إبراهيم سعادتي الغامرة بها، رغم محاولتي التحفظ وعدم إظهارها كلها، ورغم أنه كان يزورني محملاً بالهدايا وكنت أشكره عليها وأحتفي بها، لكنني

كنت أحجل من فتحها أمامه، وأحاول أن أمثل لوصايا أمي بالهدوء والاتزان في ردود الأفعال، لكنني كنت في السادسة عشرة من عمري وقتها، وكنت مرحة، وعفوية، وممتلئة بالحياة، لذا حين فاجأني إبراهيم بعد أيام بأثني عشرة رواية أحضرها لي من عمان، فرحتُ فرحًا بالعمارة نسيتُ معه خجلي واتزاني وكل وصايا أمي، ولم أجلس على الأريكة بل تربعتُ على الأرض مباشرة، ووضعتُ الكتب أمامي وأخذتُ أقرأ عناوينها بصوت مسموع وأنا أضحك بصوت احتفالي، وأردفه بقولي شكرًا شكرًا شكرًا....، ومنه إلى العنوان الآخر فأقرؤه وأضحك وأكرر شكرًا شكرًا... ثم جمعتها ورتبتها ورفعتُ رأسي إليه لأسلم عليه فقد نسيت السلام حين شاهدتُ الكتب، وكان ما زال واقفًا وقد طوّق جسده بنراعيه، ويتسم لمظري المجنون وضبطي متلبسةً بالفرح.. لقد اكتشف شغفي، ومن وقتها دخلت الكتب إلى حياتنا.

وبعد الزواج تنوعت قراءاتنا وتوسعت إلى مجالات أخرى، ولأن الوقت الذي يقضيه في العمل كان طويلًا جدًا، فقد كنت أخلو بالكتب في هذا الوقت، وإذا دخل البيت عند عودته من العمل ووجدني أقرأ، يقول: تبدين مستمتعة، ومنظرك يحمسنني للقراءة؟ وعندها بدأ يشاركني قراءاتي المعرفية الناشئة ببطء آنذاك، لكنه لم يفرق غرق في البحث فيما يتعلق بسؤال المرأة.

وكان من عاداتنا القراءة سويًا في المكان نفسه، في الصلاة أو مكتبة المنزل، أو أثناء السفر إلى الخارج، وتشارك الأفكار، إن كان الكتابين اللذين نقرأهما مختلفين، أما إن كانا لنفس المؤلف فالحديث عنهما والمناقشة فيهما يغدوان أروع وأشد حماسة. وكنت إذا كتبت مقالاً أو

بحثاً أحدث إبراهيم عن أفكاره التي سألها فيه، وأستشير في العناوين وأحاوره في مقترحاته حولها، ويحتل الحديث عنها - طيلة فترة عملي عليها - جزءاً من مساحة أحاديثنا اليومية، وعندما بدأت بدراسة أعمال إدوارد سعيد في أطروحة الدكتوراه ضمن دراستي لنظرية ما بعد الاستعمار، كان إبراهيم على إمام بالأفكار التي أتاولها والإشكالات التي تشغلني أثناء البحث والكتابة، وكان إذا علم باحتياجي إلى مرجع لم يتيسر لي العثور عليه يجتهد في تمكيني من الحصول عليه بكل طريقة، حتى أصبحت له شبكة علاقات بموظفي المكتبات والأصدقاء الذين يساعدونه في الوصول إلى الكتب والمراجع داخل المملكة وخارجها.

وكانت العادة الأكثر إمتاعاً هي تشارك قراءة كتاب واحد نتأوب على قراءته لبعضنا البعض. وغالباً ما يكون رواية لمناسبتها لأجواء السفر، وكنا نقف ونضحك كثيراً حين يخطئ أحدهنا في قراءة اسم أو كلمة، ونستصحب التندر على الخطأ حتى آخر جلسة قراءة.

ومن عاداتنا الطريفة أننا كنا نحب أن نكتشف في أي مدينة نزورها للسياحة أماكن نعقد معها صداقة ونجعلها سرّاً الخاص، فتتردد عليها إذا عاودنا زيارة تلك المدينة، ولا نحدث عنها أحدًا إذا هدنا من السفر، كأن نتعرف على مقهى جميل في شارع جانبي هادئ، أو متجر لبيع الورود وبطاقات الهدايا، أو مطعم مميز، أو حتى عربة مثلجات.. وقد كان الأمر من الطرافة بحيث كنا نحترمه فعلاً ونتعامل معه كأبي سرٍّ من أسرارنا الصغيرة الأخرى.

ومن عاداتنا الخروج للتتره بالسيارة عند نزول المطر وملاحقة السحب الممطرة حتى آخر غيمة.. وآخر قطرة..

كما نشرق نوافذ السيارة لنملاً صدورنا برائحة المطر لحظة ملاسته الأرض بعد طول عطش، ونمسك بأيدي بعضنا، ونمضي ساعات نتجول تحته، وإذا استمر هطوله أياماً كنا نكرر جولاتنا طيلة تلك الأيام، فلم يكن المطر حدثاً عابراً بالسبب إلينا، بل حدث حريّ بأن نحتفل به بكل صور الاحتفال.

وكنت إذا استمتعت بنزهة في سنوات زواجنا الأولى أتمنى لو شاركتني فيها شقيقاتي الأصغر مني، إذ كنت أكبرهن والمتزوجة بينهن، وكان إبراهيم يقرأ ما يدور في ذهني ويشعر بما يموج في وجداني دون أن أتحدث به، فكان يلتفت إلي ويسألني أتحيين أن نصحب أخواتك معنا، فأبتهم وأوافق شريطة أن نذهب لاصطحابهن بعد أن نقضي بعض الوقت وحدنا، حتى ارتبط المطر لديهن بعد زواجهن بخروجهن معي وإبراهيم.. ثم تزوجت شقيقاتي الواحدة تلو الأخرى، وبقينا نصحب من بقيت منهن معنا، ومع مجيء أطفالنا أصبحنا نصحبهم أيضاً.. لقد كانت علاقتنا تنفجر بالبهجة وتوسع وتشمل بها الآخرين.

ومضى كل ذلك ويدي في يده...! وهي العادة الأكثر انغمساً، هي لغة التواصل الصامت، والمغنية عن الكلام، وكان يمكننا أن نقطع مسافات طويلة ونحن صامتين، فقد كان يكفي اشتباك أيدينا، ولم يكن هذا حكراً على التجول وقت المطر، كانت عادة ارتبطت عندنا بركوب السيارة، حتى كان ابنتا عمر يشاكسنا أحياناً بمحاولة فك أصابعنا والمباعدة بين أيدينا، وكان في حديث الأيدي ما يفني ويغني عن الكلام والعتاب والاعتذار، كان حديثاً يسري من أيدينا إلى قلوبنا مباشرة.

هكذا كنا، وهكذا استحال كل ذلك الدوي المالي حياتي إلى سكونٍ

كثيب بعد رحيله..

أما أوجع تلك العادات التي لم أتمكن من استردادها إلا بعد أكثر من ستين من وفاته، فتلاوة الورد القرآني قبيل صلاة العشاء، فقد كان من عادتنا تلاوة الورد سويًا على نفس الأريكة ورأسانا يتكئان أحدهما إلى الآخر، فلم نكن نجلس على مقعدين منفصلين أبدًا، وكانت عادة عفوية ما لبثت أن ترسخت حتى في حال حضور المقربين كما حوتني، لذا عندما حاولت العودة للتلاوة في نفس الوقت لم أتمكن، وتعثرت بذكرا، وعانيت طويلاً، كنت أشعر بنقص تنزاحم في حنجرتي كلما تلوت والآيات تأبى الخروج منها، والدموع تنهمر على وجعتي، وغدوت أشبه بالطير الفاقد لصاحبه، لا يُحسِن عيشًا ولا يملك موتًا؛ لذا كان لزامًا عليّ تغيير وقت تلاوة الورد، فغيرته إلى وقت لم نكن قد غرشنا فيه تلك العادة ورؤيناها حتى صعب عليّ لا اجتثاتها وحدها، بل اجتثت كل ما يلتصق بها من مشاعر، وحضور، وذكرى.

حنين الأمكنة -

نحن لا نحن إلى المكان
ولكن إلى الزمن
الذي عشناه في ذلك المكان
وذلك الزمن قد ضاع بشكل لا رجعة فيه
وإلى ذلك الزمن لا يكون أبدًا
من الممكن الرجوع!

أنطونيو بريتي

من عجائب المدن الصغيرة أن أحسن ما فيها هو ذاته أسوأ ما فيها،
وهو بلاء مسيرة التغير وثبات الزمن والأشياء نسيًا، على أن ما يُعاب في
تلك المدن الهادئة بإيقاعها البطيء الرتيب هو ما يميزها؛ إذ تتوثق صلة
إنسانها بالطبيعة، وتتنبه حواسه للتغيرات الطارئة في أحوالها، هذا عدا
ما ينجم عن التأمل فيها من سعة أفق، وانسراح صدر، وذوق للجمال.

ولما كنت طفلة نشأت في أحضان الطبيعة وكبرت فيها، فقد نلتُ
حظي من صداقتها، ولست أعني بالطبيعة ما يتبادر إلى الذهن من سهول
خضراء، وشلالات دافقة، وجبال شاهقة، وأشجار على مدّ البصر، فهذا
التصور (الكرتومي) للطبيعة يصدق على بلاد هايدي في المنطقة الخلابة
الواقعة على امتداد سلسلة جبال الألب الأوروبية، وليس يشبه هذا ما
عنيته من قريب أو بعيد، وإنما عنيته الطبيعة التي هي قسمة بين البشر،
كالظواهر الكونية المتكررة والتي يتعاقب فيها الليل والنهار، ومواسم
السنة، ويدور فيها القمر دورته الساحرة.. الطبيعة التي يتشارك فيها أهل
الأرض جميعًا، ولا يتأتى لأحد منهم التمتع بها قدر ما يتأتى لسكان

الصحاري، والأرياف، والقرى، والمدن الصغيرة، ولا أعني بهذا افتقار أهل المدن الصاخبة القدرة على استشعار عظمة تلك الظواهر وجمالها، ولكن تشغلهم سرعة إيقاع الحياة عن عقد علاقة تأملية وجمالية معها، ويحرمهم التغير المتسارع من ملاحظة تغيراتها البطيئة، كما تحجبهم الكتل الأسمنتية الضخمة من أبراج و بنايات شاهقة عن تأمل ما يعلوها، وكأنما هذه هي الحال في أي مكان، تتسع المدن فتضيّق المساحة التي يُطلُّ منها إنسانها على السماء.

وقد بدأت علاقتي بالطبيعة في أواخر سن الطفولة، حين كنتُ وشقيقتي هلا، التي تصغرنني مباشرة، نتمنى أن يؤذن لنا بالسهر حتى نرى انبثاق الفجر في السماء، وكان لا يُسمح لنا بهذا إلا في رمضان لمصادفته الإجازة الصيفية؛ إذ الليل قصير والكل مستيقظ، ولم تكن نرضى بنصينا هذا من رؤية المعجر، فكنا نحتال لرؤيته أوقات المنع من السهر بصنع قهوة وتخبئتها في دولاب غرفة نومنا لتمكن من احتسائها خفية فتَمَكَّنَّا السهر وبلوغ المنى، وإذا برائحها الفواحة تفضحنا وتسرق أمي إلينا لتصادرها، وتُمني جريمتنا البريئة بالفشل!

كان يفتننا في الفجر ميلاده المتأني، وشفقه الخمري، ونجمة الصبح التي تلمع في سمائه. النجمة التي أصبحت بعد عقد قراني وإبراهيم موضوع اهتمامنا وسرنا الحبيب، والرمز الذي يربطنا ببعضنا وإن فرقتنا الأماكن.

وعندما انتقلنا إلى الرياض لمواصلة الدراسات العليا لاحظتُ الفارق التي يضيفه المكان على الظواهر الطبيعية، فرغم أن الفجر هو الفجر في كل مكان، فقد فوجئت بفجر الرياض لا يلبث أن ينبلع، ويضوء الشمس

يكسح السماء والأرض بسرعة تفوق تلك التي كان يستغرقها ميلاد الفجر في الشمال.

وكنت إذا رافقت إبراهيم للتجول بالسيارة في شوارع العاصمة وحدثته عن طقس ذلك اليوم، عن غيومه المتناثرة، أو سمائه الصافية، أو الشمس التي على حرارتها تبدو بعيدة في أعلى نقطة في كبد السماء، بعكس شمس القرى التي كأنها تعلو رؤوسنا مباشرة، أو حدثته عن العصفير التي ازداد تغريدتها مع قرب الربيع، أو لفتح رياح الخريف الباردة الجافة، يقول ضاحكاً: مستنسين كل هذا إذا قلدت السيارة. يعني أن الزحام سيختطف اهتمامي وتركيزي ويستأثر بهما، وقد كان محقاً.

فنحن صنعة الأماكن التي نولد بها، وأسرى الأماكن التي نسكنها أو نعقد صلات إرادية معها، مريدون وغير مريدین، هكذا تتجلى علاقتنا بالمكان، وهذا موقعي منه، وكان تقديري للعلاقة بالمكان يتفق مع ازدرائي النمط الاستهلاكي الذي دثر صلتنا بالأماكن ومزق الروابط الزمنية بيننا وبينها.

ومن صلتنا بالأماكن كنت قد كتبت قبل تسع سنوات من وفاة إبراهيم رحمه الله: (قد يتجاوب أحدنا مع ثقافة عصره الاستهلاكية فيتجاوز الأشخاص، والأشياء، والأماكن برقابة وألفة من يتناول قهوته الصباحية في فنجان ورقي لا يلبث أن يتخلص منه، ويتناول غيره في اليوم التالي وكأن شيئاً لم يكن!)

وقد يُبتلى أحدنا بذاكرة تاريخية ترفض هذا المنطق الاستهلاكي فتحثني بالأشخاص، والأشياء، والأماكن.. وكل ما تشدها إليه رابطة زمنية تكسبه قيمة إضافية. بل حتى الفناجين المتقاة من أرفف متجر

تقليدي ذات مباحة قد تجد لها محلاً في ذاكرة بائسة تحتفظ بكل شيء. وهكذا هم أبناء البلدات الصغيرة، يحتفظون بوقائهم للتفاصيل الصغيرة، ويسارعون لاحتضان ذكراها لحظة تصادفهم بين صفحات قديمة كطلمة جائعة، مبللة بالمطر، تائهة، وتبحث عن مأوى).

وهكذا كنت أشعر، هكذا تمامًا بعد غياب إبراهيم، فكل الأماكن التي زرتها وأحببتها، واختزلت ذكرياتنا معاً كان لها الحنين ذاته، حتى ذلك المسجد القديم الذي كنت قد سألت أن يصحبني إليه حين كنا نقيم في القرى، وكان فيه درس علمي لأحد الأكاديميين الشرعيين القادمين من خارج المنطقة، وكان أول درس أحضره في حياتي، ذلك المسجد الذي ما زال يجيش له صدري إن مررت بجابه، يذكرني اليوم الذي شهد إقلاع إبراهيم عن التدخين، وكنت قد رجوته قبلها بأيام أن يخفف منه، ولم يكن يتناول أمني لأكثر من ذلك؛ فكل من حوله مدخنون، ومن أعرفه منهم حاول الإقلاع عنه لعدة مرات ولم يستطع؛ لذا كنت أتمنى فقط أن يخفف إبراهيم منه وأقنعه وقتها بترك التدخين في البيت فوعدني بذلك، وفي اليوم الثاني من وعده لي وبينما كنت أتأهب للخروج معه للدرس، إذا برائحة الدخان تصلني، فمأزحته عاتبة بقولي: إن الله يراك، وليست ملاك التي أخلفت وعذك لها! فجاء إلي مبتسماً وأمسك بيدي ووضع فيها علبة الدخان والولاعة وقال: تخلصي منهما.. لن أعود إليه أبداً!

ولم يعد إلي من يومها، ذلك الرجل ذو الإرادة الصلبة، ذاك الذي لم يكن يفخر بما فيه، ولم يتكثر يوماً بصفات ليست فيه، ذاك من تعلمت منه الكثير وأدين له بالكثير..

وأعلم أن الشروط التي دونها أبي في عقد النكاح لم تكن أبدًا هي ما حملت إبراهيم على موافقه البيضاء معي، ولا بذل ما بذله تجاهي، وكنت قد أقسمت ألا أعود للدراسة، وكانت اهتماماتي بعلوم الشريعة قد بدأت تتشكل بعد حادثة ترك الدراسة بسنوات، ولأنني نشأت في أسرة ليست بأسرة علماء أو مشايخ شريعة، وكان تدين أسرتي فطريًا، وتسنده بعض القراءات القليلة المتنوعة في التاريخ والسيرة النبوية والأخلاق، فقد كنت أحرص على حضور الدروس العلمية المقامة في المساجد والنادرة جدًا في ذلك الوقت؛ إذ لم تكن في القرى مناطق نشطة شرعية علمية أو دعوية، ولما كانت هذه هي الحال، ولما لم يُشجع التعلم الذاتي نهمني للمعلم، ولميلني للتدقيق والتحقيق، ومصدقًا لقول القائل: (من كان شيخه كتابه كان خطؤه أكثر من صوابه) فقد كثرت عن يميني وأتيت الذي هو خير، وكان إبراهيم هو من اقترح الفكرة وهاتفني من عمله وأحبرني ببدء التسجيل في الجامعة، وبأشر إجراءات تسجيلي بنفسه، فالتحقت بكلية الشريعة بالرياض للدراسة انتسابًا، وبعد تخرجي منها استخرج لي شيعي وأستاذ أصول التربية في الكلية الشيخ عبد الله الزامل رحمه الله نصريًا بإلقاء الدروس العلمية في القرى، وكنت أول امرأة تحصل على تصريح من وزارة الشؤون الإسلامية لتقديم الدروس العلمية في المساجد، وما زلت أذكر أول درس قدمته في أحد المساجد ضمن برنامج علمي متكامل، فقد كان درسي الأول في شرح كتاب (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي رحمه الله.

وما زلت كلما زرت القرى ومررت بقرب ذلك المسجد أتذكر كيف كان إبراهيم يذهب بنفسه للتأكد من تعليق برنامجي العلمي هناك، ولا أنسى أنني مررت معه قبل الدرس الأول بيوم لرؤية المصلى النسائي

حيث سأقدم الدروس، فوجدت البرنامج مزالاً بصورة متعملة ولم يبق منه إلا مُزَق ورق صغيرة عالقة بين غصون الشجيرات القريبة أو يقلبها الهواء على الرصيف.. فلاحظ إبراهيم أسفي لهذا المشهد، فأخذ بيدي قائلاً أن لا تقلقي سنعاود تعليقه، وكان يمر باستمرار فإذا وجده مزالاً، لم يزد على إعادة تعليق نسخة أخرى منه، على طريقة (وإن عدتم عدنا) دون أن يكثرث بهوية الفاعلين، لكنه أدرك مثلي أنه لم يكن مرغوباً بوجودي هناك، ولا أشك أنه استاء بمثل امتيائي من تلك المواجهة الرافضة الصامتة ضدي، لكنه كان حكيماً وحليماً فحثني على الصبر والمواصلة، وكان يقول لي المصادمة مستثتت وتبدد جهدك وتطفئ روحك، فتجنيها واستمر في طريقك ومادام عملك مرخصاً به فاصمدي ولا تكثرثي وسرعان ما سيمل من يريد إبعادك، وقد كان الذي قال.

وبمثل هذه الرابطة الوجدانية بالمكان والتي جعلت من كل بقعة وطأتها قدماً لإبراهيم ينبوعاً للذكريات، كانت الأماكن تزدهي وتشعب بحسب ما ترك لنا فيه من نقيبه رحمه الله، وهذا ما منع بنائي أن يحين البيت الجديد الذي كان إبراهيم قد بدأ بينائه في القرىات قبل انتقالنا إلى الرياض، وأكملت بناءه بعد وفاته رحمه الله، ليضمهم قرب أهليهم في حال تهطفتي بدُ المنية على حين غرة كما حدث لأبيهم رحمه الله، أكملته عملاً بالأسباب لا تعلّقاً بها.

وكنا قد خططنا ذلك البيت معاً أنا وإبراهيم وحشدنا كل أفكارنا ليكون على الطراز الأندلسي بفناء داخلي (وبحرة فوارة بالمياه) ونوافذ كبيرة تستضيف الضوء في كل ردهة من ردهات البيت، حتى أننا جعلنا أحد الجدران المطلّة على الفناء الداخلي زجاجياً وشفافاً بالكامل. ومع

ذلك فلم يحببته بناتي، لأنه كما كن يقلن (بابا لم يعيش فيه معنا) ولا ذكريات خبأناها في زوايا البيت، وأفنته، وبين جدرانها لنأنس بها.

وفي الرياض حيث كان إبراهيم يأتي بي للاختبارات أثناء دراستي في كلية الشريعة، كانت لنا ذكرياتنا أيضًا، فقد كنا نبحث عن مكان ملائم لنمكث فيه أسبوعي الاختبارات، واكتشفنا ونحن نتجول في الرياض حيّ السليمانية، فذكرنا بأحياء الشام، وأحييناها، وأصبحنا نختار مكانًا قريبًا منه. ولمّا كنت لا أستطيع الدراسة في الفنادق لمحدودية مساحتها، ولعادتني في المشي أثناء الدراسة، فقد كنا نسكن هذه المدة في شقة مستأجرة، وكنت أدرس طوال الوقت ولا أجلس مع إبراهيم إلا أوقات تناول الوجبات، وكنت إذا قدمت للدراسة تركت بناتي الثلاث اللاتي كن كل أسرتنا آنذاك في بيت أهلي لتعتني بهما شقيقتاي المعطاءتان التوام هدى ونور اللاتي سماهن جدي لأبي رحمه الله (نور وهداية) محبة للشيخ علي الطنطاوي رحمه الله. وأستاذ القارئ في الاستطرد قليلًا هنا، فقد علم جدي بولادتهما وهو في زيارة استشفائية إلى القاهرة، وطلب من أحد المتاجر هناك تصميم عقدين نقش عليهما اسميهما، وأرسل للشيخ الطنطاوي أنه قد سمى حفيدتيه على اسم برنامج محبة فيه، وقرأ الشيخ رسالته في برنامج وبارك له ولادتهما، على أن أمي طلبته بعد فترة أن يغير اسم هداية لهدى فوافق.

وعودًا لحين الأماكن وإبراهيم الذي كان محبًا وسخيًا ومدركًا لأبعاد إعانتني على العلم، فلا أذكر ولو مرة وإن في فورات الخصام والمفاضية أن امتنّ عليّ أو ذكرني بمعروفه وصنائه، على أنه لم يكن يرضى في معاونتي باليسر أو الذي يؤدي الحاجة ويسقط معه العتب، فلم يُسكني

وقت دراستي إلا في أحسن الأماكن، رغم أن معياري الأول والأهم في أي مكان نكته كان النظافة الدقيقة لا أكثر، ورغم أنني لم أكن متطلبة، فقد كان يصبر على أخذني آخر يوم للشوق وزيارة صديقتي، صديقة درب العلم والعمر الحبيبة شرف أبو طيرة.

وكنت إذا سألته عن مصاريف الرحلة من تذاكر وإقامة وغيرها، يرفض إخباري، على أنه لم يكن له مصدر دخل آخر غير راتبه. وعندما تخرجت من الشريعة بامتياز مرتفع مع مرتبة الشرف، قال لي: إن أردت إتمام الدراسات العليا سأكون لك ومعك وأعيك، وأعلمي أنني لا أفعل هذا فقط لأنك حبيبتني، بل لأنك طالبة علم جادة، وإنني لأرجو من الله ثواب إعانتك على طلب العلم.

وعندما أنهيت الماجستير وأردت دراسة الدكتوراه كان البرنامج مغلقاً وبقي مغلقاً لستين، ولما فُتح كنت قد فكرت في الموضوع الذي سأختاره لرسالتي وبدأت رحلة تعلم الإنجليزية، ولأنني أكاديمية فيتاح لي الابتعاث لتعلم اللغة لسنة خارج المملكة، حاولت أن أحصل على الفرصة نفسها داخل المملكة للاستفادة من سنة التفرغ عند دراسة اللغة ابتعائاً، لكن هذا الخيار لم يكن متاحاً في الأنظمة الجامعية، ولم أفكر في إدخال الخيار الأول في حيز التفكير أصلاً رغم موافقة إبراهيم على ابتعائي، لا لشيء إلا لأنه كان سيبعدني عن أسرتي، ولعدم الارتباط الشرطي بين تعلم اللغة والسفر، فقد تحركت في حدود ما تتيحه لي ظروف وأولوياتي فالتحقت بالمركز البريطاني في حي السفارات في الرياض آنذاك، لكن قاعة الدراسة كانت في الطابق الثاني، وكان المبنى مكوناً من طابقين ليس بينهما مصعد، وكنت حاملاً بطفلي الأخير سعد،

في الشهر السابع، وتقدمت الأسابيع الدراسية مع تقدمي في الحمل، ولم أعد أطيق صعود الدرج للطابق الثاني فتركت الدراسة في المركز، وقال لي إبراهيم وقتها: سأدرسك، وكان قد درس تخصصه في الهندسة بالإنجليزية، فاخترت مجموعة كتب لتعلم الإنجليزية وطلبها من موقع أمازون ليدرسني إبراهيم وفق منهج محدد، وبدأنا الدراسة في رمضان، فكنا نخرج إلى المجلس الخارجي الملحق بالقبلا بعد عودته من صلاة التراويح، ويدرسني لساعتين وربما أكثر قليلاً، كان مدرساً موهوباً وكنت تلميذة مجتهدة لكنني كنت أحرص على تدوين كل كلمة جديدة تصادفني في تطبيق (Anki) لحفظ ومراجعة الكلمات الجديدة، وكان يصحك لحرصه ويقول: لا تدوني إلا الكلمات المهمة، فذكر الإنسان محدودة والكلمات المهمة كثيرة، ولا حاجة لك بتذكر اسم (شارب القبط) لتحفظه!

وعندما سافرنا في إجازة الصيف إلى القرية كان مستمراً على تخصيص الساعتين بعد صلاة العشاء لتدريسي، وكان إخوته وأصدقائه يتصلون به متسائلين: أينك؟ فيقول مشغول، ولا أحد يعلم أنه مشغول بتدريسي، إلا أخي الذي كان يزورنا باستمرار وفتحت له العاملة الباب في إحدى المرات وإبراهيم يدرسني في المكتبة، فدخل ورأنا وأخذ يضحك لاكتشافه سرّ تأخر إبراهيم عن اجتماع الصحاب ما بعد العشاء. ورغم أنني أكملت تعلمي للغة وحدي بعد أن أنهيت سلسلة الكتب التي بدأنا بها، لكنني ما كنت لأنسى تلك الأيام المليئة بالعطاء والحماس والمشاركة.

وكنْتُ إذا غضبت منه، وكثيراً ما أعضب، أَرْضَى سريعاً إذا قال لي

ما زحاً: أتغضين من معلمك؟ كنت أغضب سريعاً ولا ألبث أن أَرْضَى
وأنسى ما كان، حتى قالت أُمِّي: ملاك كالبحر تغضب فتتحسر وترضى
فتأتيك كلها.

وما زلت إذا مررت بالمجلس الخارجي وجلست في مكاسا الذي
ألعبنا، تذكرته وهو يدرّسني، وتذكرت ما قاله لي أخي بعد عودته من
الدفن، عن القبر الذي احتضن إبراهيم، إذ كان القبر الذي كابوا قد قربه
إليه لدونه فيه أول الأمر ضيقاً بعض الشيء، كان رحمه الله سميماً ولم
يكن القبر واسعاً بما يكفي ولا بد من بذل جهد لوضعه فيه. يقول أخي
عندما نزل من يتلقونه لوضعه فيه وقبل أن ينزلوه إليه، ضاق صدري
لضيقة على أبي عمر، فإذا بأحدهم ينادي من موضع بعيد قائلاً: هنا قبر
أوسع! فأخذوه إليه، فإذا هو فسيح، فارتحت. فبكيت لكلام أخي ودعوت
لأبي عمر بالرحمة، وقلت: كان يوشع علينا، فوشع الله له.

تجليات الفقد - وسائل التواصل

لا تسلمي لا تجرح السر في نفسي
ولا تمخ كبرياء سكوتي ..
لو تكلمت كان في كل لفظ قبر حلم
وفجر جرح صميت ..
تلك الملازمة

يقال إن الأحزان الكبيرة بكاء!

ويقول الراحل غازي القصيبي:

اترك الجرح لحظة يتكلم رب جرح يطيب حين يقول
في حين يقول آخر:

خبي جروحك إن أردت شفاءها إن الجروح إذا بدت لا تظهر
وقد يصدق هذا أو ذاك؛ فالناس لا يقفون على مسافة واحدة من
البوح، ويختلف موقفهم منه بحسب طبيعة الشخص انبساطيا كان أو
انطوائيا أو غير ذلك، كما يختلف بحسب الاضطرابات التي يفرضها
الفقد على المحزون، فقد تنقلب به الأحوال من صمت مطبق إلى فيضان
جارف من الكلمات ..

وفي بداية الفاجعة لم أتمكن من الدخول إلى تويتر ونمي زوجي،
لكنني نعتيه بعد قرابة أسبوع من رحيله، بعد تكاثر الرسائل والاتصالات
على بريدي وهاتفي، ما بين عزاء ومواساة، واستعلام للتأكد من حقيقة

الوفاة. عندها كتبت تغريدة عن رحيله، وغبتُ بعدها عن وسائل التواصل لأشهر كنت خلالها أستجيب لمشاعري بالانزواء، وكتبتُ بعد عودتي إليها كلمات عن الاستعلان بالحزن في وسائل التواصل، وكيف تفرض تلك الوسائل على المحزون نمطًا محددًا من أنماط التعبير عن مشاعره.

وكنت ممن اعتادوا صيانة مباهجهم عن الابتذال باستعراض تفاصيلها اليومية للمعابرین؛ إذ بدا لي ذلك السلوك أشبه بسلوك من هو غير قانع ولا مكف بمقاسمة سعادته مع من أحبه وحده، وإذا كانت المباهج جديرة بأن تُصان فالأحزان عندي أولى بالسمو بها وصيانتها عن الابتذال بافتراشها يوميًا أمام المازة ليرفعوا عن صاحبها تهمة خيانة ذكرى فقيد، أو يشهدوا بوفاته له. وانطلاقًا من هذه الفناعة كتبت: يالها من مشاعر رخيصة تلك التي تحددها ثقافة زمن الفرجة، ويا لها من تقييمات تافهة تلك التي يمنحها لنا من أفنوا أعمارهم يشولون الاعتراف والإعجاب من الآخرين!

هكذا كنت، وهكذا استجبت لقصائمي السابقة ومشاعري الباعثة على الانزواء وقتها، وما حدث لاحقًا هو أنني انغمست في الحزن غمًا فكت أصحو عليه، وأقاسمه فراشي وطعامي وشرابي، وكان يطفو على لفتاتي وسكاتي، كنت أنفَس الحزن بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وإذا بي أخضع لإملاءاته، أنا التي طالما تعردت على شخصيتها الساردة وجدتي أنفثه في كتابات وتغريدات وسرديات قصيرة.

واختلف نمط كتابتي المعتاد، ففقدت شيئًا من تحفظي السابق، وارتفعت نبرة السخرية في كتاباتي، ولم أكن أتعامل مع ما اكتبه بنوع من الجدية، بل اعتبرته كخرشات عابرة.. وكان مما كتبته آنذاك مما كان

يستحوذ عليّ ويصف حالي قولي: إن العقد يشعرك بأنك كمن بقي له يوم أو يومان ويغادر، فيتبّلع بأي شيء ولا يكثر بشيء.

فما الذي اعتراني يا ترى؟ وما الذي تغّير بي وغيرني؟

لم أجد إجابة لما حدث لي ومرّق أسبجتي سوى فكرة الاضطراب نفسها، فالصدمة تُجمّد معها كل شيء: التفكير التأملّي، والانفعالات بأنواعها، بل حتى القدرة على الكلام، وكنت أرزح تحت وطأتها بادئ الأمر مشدوّهة، مأخوذة بما حدث.

وما حدث ويحدث هو أن هذه الصدمة لا تبقى على حالها، وما إن تأخذ في التفتّح حتى تنفتح لنا أبواب الاحتمالات كلها، فلا شيء مؤكد سوى أننا لم نعد نحن، لم أعد أنا، هذه المشاعر المزلزلة، لا ترسو بصاحبها على أرض صلبة، ويحتاج معها إلى التأكد من موضع قدميه، من بقاءه طبيعيًا رغم كل شيء، من قدرته على التفكير والتفاعل والتنقل بين مختلف حالات الأحياء، ويصبح الأمر أشبه باختبار قدرتنا على العيش، ولأن الكتابة هي أداتي التي أختبر من خلالها تلك القدرة، فقد أخذت أتحوّل إلى شخصية انبساطية، لكن ليس على الحقيقة، ليس تمامًا، فقد كنت أشعر وكأن بيني وبين الآخرين حاجزًا زجاجيًا شفافًا أراهم من خلفه ويرونني لكنني لا أستطيع العبور من خلاله إليهم، وكل تفاعل بيني وبينهم كان صوريًا لا حقيقيًا.

وعندما أعود لكتاباتي في وسائل التواصل تلك الأيام أتذكر أنني لم أكن أتساءل: هل تغيرت قناعاتي تحت ضغط مشاعري؟ لم أفكر بهذا وقتها، وكل ما هالك هو أن حزني أخذ يتكشف بأشكال محاتلة، مرة تحت ذريعة سرد تجربة مضت، ومرة بذريعة الكتابة الحرة، حتى وحدثني

أفقد آخر أحجبتني، وإذا بمشاعري عارية وشفافة وظاهرة للعيان، وإذا
بي أواجه في نفسي ذلك المظهر الذي طالما مَقَّته، مشهد التشرّد على
أرصفة البوح...!

ولذا قررت وقتها اعتزال التفريد وهجر وسائل التواصل حتى حين؛
إذ لا بوح إلا ويعقبه شيء من الانكماش والتواري، فالبوح شكل من
أشكال نزع الحُجُب عن الذات، ويغض النظر عن موضوع البوح نفسه؛
إلا بوح مناجاته جلّ في علاه، يجللنا.. يفضانا.. يستر عُريّنا الروحي.

ذاكرة انتقائية الجانب المخفي للفقد

لماضي جميل؛
لأن المرة لا يدرك أبدًا
العاطفة في حينها
إنها تمتد إلى زمن لاحق
ولذا فإننا لا نفتك في الحاضر
أية عواطف تامة
كل عواطفنا التامة تتعلق بالماضي ..

فرجينيا وولف

(يمحو الموت من ذاكرتنا الصفات السلبية لمن فقدنا؛
فيتعاضد شعورنا بالفقد).

هذا فحوى ما قالته لي صديقة عند رؤيتها لي بعد فقد إبراهيم بعام ونصف تقريبًا. لم تقله لي حين جاءت لتعزيتي ليلة وفاته، وقالته لي بعد كل هذا الوقت، وكأنها كانت تأمل أن أبدو على خلاف ما بدوت عليه وقتها. فما كان مني إلا أن دُهِشْتُ لقولها ولم أجيبها وبقيت صامتة.. نعم، لم أنفِ ما قالته، أو أزعم خلافه، ولم أوافقها فيه كذلك، لكنني لم أنسَ مقالتها أو أتجاهلها كأن لم أسمعها، بل أفسحت مجالاً للتفكير فيها، وتساءلت في نفسي: أهذا ما عليه الأمر حقًا؟ أم هو مجرد فرضية؟

وكان من عادتي مواجهة نفسي وعدم التردد في الاعتراف بأوهامي

وأخطائي وغيوبي، فقد علمتني التجارب أننا نؤتى غالبًا من قبل أنفسنا،
لذا لا تهاون مع الاستسلام للأوهام فضلاً عن صنعها.

وكان حتمًا عليّ التدقيق في مشاعري وأفكاري للتيقن مما إذا كان
محو سلبيات من فقدت فخًا نصبت له ذاكرة انتقائية، أم لا؟ كما كان
عليّ التيقن بالمثل مما قالته لي صديقة أخرى على سبيل المواساة أيضًا:
«نحن نحزن لا للفقد، بل لفوات حفظنا ممس فقدا، فتخيلي فقط لو تزوج
زوجك بأخرى، فهذا الخيال وحده كفيلاً بكشف هذه الحقيقة، ولهان
عليك ما تقاسينه الآن!»

ولأنني لا أحسن التخلص من شخصية الباحثة؛ فقد تعاملت مع تلك
العبارات كفرضيات، وقادني تساؤلي حول عبارة الصديقة الأولى إلى
اختبار مدى مصداقية هذه العبارة على علاقتي بإبراهيم، وبدأتُ هذا
بالتتبع الاستقصائي لخلافاتنا الزوجية، كما حملني خيال المواساة
المقترح من صديقتي الثانية إلى التأمل في طبيعة علاقتنا الطويلة أنا
وإبراهيم ومدى تأثير الذاتية فيها.

وعدت بذاكرتي لسنوات خلت، لأستحضر ما كان يدور بيننا من
عبارات لحظة الخلاف، فالاعتراعات والانهامات السلبية لحظة الانفعال
قد تكون كاشفة، وقد لا تعدو كونها مبالغات، نعم قد يكون لها حظها
من الحقيقة، لكن يحدث بين أطراف الخلاف أحيانًا أن يعمد أحدهم
إلى جرح الطرف الآخر إمعانًا في إيلاسه تلك اللحظة، ليس إلا... ومهما
يكن من أمر فقد اخترت استعادة ما مضى قدر استطاعتي ورميت ببصري
بعيدًا وأنا أتذكر وتساءلت ما نوع الكلمات التي كنت أنفوه بها تلك
اللحظة؟

حاولت تذكرًا لكلماتي فلم أذكر إلا ما كان يدور بيننا من خلافات في الموضوعات ذاتها، مع توهمات وطعون تتعلق بالحب، كعادة أي حبيبين ينصبان المشائق لتصفية دعاوى الحب بينهما لحظة الخلاف، وتذكرت قلبي له لو كنت تحبني حقًا لما صدر عنك هذا الأمر أو ذاك... وكلمات من هذا القبيل! نعم كنت أغضب وأقسو على نفسي إذا اختلفنا أحيانًا فأبتعد عنه دون أن أغادر البيت، وكنت أمتنع عن الأكل والشرب والنوم طيلة ساعات خصامنا، لكنني لم أدعه يومًا يأتي إلى البيت ليجدني قد أهملت شيئًا من واجباتي بذريعة الخصام، ولم أتوقف عن تلبية أيٍّ من حاجياته لأنني غاضبة منه أو عاتبة عليه، ومع فسوتي على نفسي فلم أكن أسمح لهذه القسوة بالامتداد إليه، ورغم أنني كنت أحرم نفسي النوم إذا تخصمنا، فلم يحدث أبدًا أن نمت ليلةً خارج غرفتنا، وغاية ما أفعله هو أنني كنت أعلق كل شيء لحظة ابتعادي عنه، ومع ذلك فلم يمض علينا عيدٌ أو مناسبة بهيجة ونحن متخاصمين، وكنا نتناقش ونختلف في كل شيء لكننا لم نحطم يومًا الاحترام الذي بيننا، كما لم نسمح لخلافاتنا أن تتعدى جدران بيتنا، وما أسرع ما نتصالح، وكان يضاحكني بعدها ساخرًا من تطرّف حزني، فيقول: ممّت واستيقظتُ وأكلتُ وشربتُ وها قد تصالحنا، فما كان أغناك عن هدر طاقتك وتعذيب نفسك لأي سبب كان، وأنت تعلمين بقاءًا أنه سيزول لاحقًا ويبقى حُبنا كما كان.

ومع مضي الأعوام خفت حدة ردود فعلي تجاه الخلاف، ووصل بنا الأمر في السنوات الأخيرة إلى الاستغناء عن الاعتذارات وعبارات التصالح، لقد كان يكفيني ويكفيه أن ينظر أحدهنا إلى الآخر مبتسمًا أو يرسل له بعض الإيماءات اللطيفة أو الساحرة ليزول كل ما كان، وكأنه لم يكن!

وكنْتُ في حبي له كأمي لأبي ورحمهما الله، فقد كانت أمي تختلف مع أبي دون أن تتجاوز حدود الاحترام، أو تمتنع يوماً عن أداء مسؤولياتها، أو تعرضنا على عصيانه أو الاعتراض على مواقفه معها، أو تستغل عاطفتنا تجاهها للاصطفاف ضده، بل كانت ترسلنا لتفقدته وموانسته أحياناً، وترفض كل محاولة للتدخل بينهما.

وهنا توقفت قليلاً وحدثت نفسي: أمي حقاً غشاة فقد تغطي عينيك يا ملاك فلم تعودى قادرة على إبصار مواطن الضعف في علاقتكما؟ هل كان إبراهيم ملاكاً مترها عن العيوب والنقائص؟ أم أنك من السذاجة بمكان لتحفى عليك عيوبه ونقائصه؟ وكيف، وقد عشت معه أكثر مما عشت في بيت أبويك؟ لقد عرفته مدة من الزمن تكفى لتعريه أخلاق وعيوب أي إنسان كان، أفليس عجيباً إذن أن تحفى نقائصه على عين باحثة مثلك! أهو حبك له الذي يُعمي ويُصم؟ أم هو الإنكار المحض؟ أم ماذا؟

والحق أنني أجهدت ذاكرتي فلم أجِد في إبراهيم من عيب أخفيه، أو أتغاضى عنه إكراماً لذكراه وهو أهل للإكرام، لقد كان نبلاً بصدق، ودون تزيف أو تجميل. على أنني كنت إذا قرأت لزوجة لا تذكر مواطن الضعف في زوجها عند كتابة سيرته أعجب، وأنتقد تحيزها، فإذا بي أنا نفسي أشبهها.

ويكفى أن أتذكر حلمه وصبره في بداية زواجنا، لأكمش استحياء من تشكيكي في حقيقة نظرتي إليه، فقد تزوجنا وأنا في سن صغيرة وكنت نزاعة للحرية، ولأنني أول ابنة في الأسرة بعد ثلاثة ذكور فقد كنت أتحمس من محاولات إخوتي الذكور السيطرة علي في ذلك الوقت، وحملت

معي تحسسي إلى بيت الزوجية، وكان على إبراهيم أن يواجه إسقاطاتي المستمرة عليه، إذ كنت أفسر كل سلوك يصدر عنه في فترة المملكة بأنه نزوع للسيطرة، وأجفل منه، وكان ينبغي كل ذلك ليذكرني أنه ليس أحدًا من إخوتي، وأنه لا يحاول ترويض ولا السيطرة علي، وكل ما أسأت فهمه من مواقفه إنما كان تعبيرًا عن حب يحياه معي للمرة الأولى، فتأتي تعبيراته مرتبكة، وملتبسة، وموهمة أحيانًا.

وبعد عودتنا من رحلة ما بعد الزفاف ووصولنا إلى مطار الملكة عالية في عمان- إذ كنا نحجز لرحلاتنا الدولية عن طريقها لأنها كانت أقرب إلينا من مطاراتنا الدولية- حجز إبراهيم عدة أيام للإقامة في أحد الفنادق الكبرى في العاصمة قبل عودتنا إلى المملكة، وعلمتُ حينها أن هناك حفلًا موسيقيًا سيقام في الفندق نفسه من الإعلانات الموجودة في بهو الفندق، فطلبت من إبراهيم أن يحضره سويًا فرفض، على أنني لم يسبق لي حضور حفلة موسيقية مطلقًا بعكس إبراهيم الذي كان يحضر بعضها أحيانًا، فلما غضب إبراهيم وأبى أن يحجز لنا تذاكر لحضور الحفل؛ لرفضه فكرة حضورنا لحفل تدار فيه الكؤوس حولنا، غضبتُ لغضبه علي، فما بدريني أن الحفلات كانت بهذه الصورة، ولم أتحدث إليه نهارًا كاملاً، وفي المساء خرج قليلاً ثم عاد إلى الغرفة، قائلاً أنه شعر بتوعك وذهب إلى الطبيب، فخدمت أنه إنما كان يتظاهر بالمرض طلبًا لرضائي فقط، وأسفتُ لأنني اضطررت له هذا، واعتذرتُ منه واعترفتُ له وقتها أنني لم أكن أنوي الحضور ولا أحب الاستماع للموسيقى إلا معك وحدك، لكنني تعمدت استغزائك والذهاب بك إلى أبعد مدى ممكن لأختبر مدى حبك لي! فابتسم مندهشًا من تصريحتي وقال لي مصححًا: الحب يا ملاكي لا يعني

الانحناء ولا التلذذ بإخضاع الطرف الآخر، وبإمكانني تنفيذ رغباتك دون أن يكون هذا مؤشراً صادقاً لحبي لك.

هكذا انتهى فحصي للفرضية الأولى فقد تبينت أنني لم أكن أحتال على فقد إبراهيم بتناسي سلبياته، وعندها انتقلت إلى فحص الفرضية الثانية، وسألت نفسي بصراحة معائلة: هل كنت مستحزناً لفقده فيما لو رحل بعد رواجه من أخرى بمثل حزنك لفقده الآن؟ أكان حزنك لفوات حظ نفسك منه كما قيل؟ أم أكنت مستألمين لفقده على أية حال؟

ولأجيب على هذه التساؤلات بصدق لا تشوبه شائبة وهم، أو ادعاء وتظاهر بالحكمة، اعترفت بحزني لفوات حظي منه، نعم، وما العيب في ذلك، إن لم أرده لنفسي فأني معنى للحب إن خلا من الاختصاص بالمحسوب!

ثم حاولت عيش الموقف افتراضياً بكل ما يكتنفه من حيثيات ومشاعر، أعني زواجه بأخرى، فكذبته وشككت فيما انتهيت إليه في كل مرة، ونقضته لأبدأ من جديد في فحصه، وفي كل مرة منها أصل إلى النتيجة نفسها، فلم يكن ليتغير شعوري تجاهه حتى لو ارتبط بأخرى، فإبراهيم هو إبراهيم قبل كل شيء وبعده، ما لم يكن ارتباطه بأخرى على سبيل الخيانة، فالخيانة وحدها ما كانت ستحطم كل تقدير له في نفسي، على أنها تمس صورته قبل أن تمسني، وقد احترمته كإنسان وأحبته فضائله قبل كل شيء، والخيانة هناك للعهد والميثاق والأمان، ليس الرواح المعلن الصريح، والتسوية بينهما لا تصح، وكما أنه لم يكن ليتأيس بالخيانة مطلقاً، فلم يكن في ظني ليفعلها ويتزوج، ومع ذلك فقد تعاملت مع المرضية الأخيرة على أنها واقع، وانتهيت إلى أنني من الباحية الوجدانية

لم أكن لأرحب بأن أشاركه مع زوجة أخرى؛ فالقلب عندي لا يقبل
القسمة على اثنين، وما من حبيب إلا ويستأثر بحبيبه، ولم أكن لأقل
بعض إنسان، فكيف بمن أحبيته!

وغاية ما تصورت فعله فيما لو حدث ذلك، هو أنني كنت سأصدم
وربما أنفعل بل أنفجر غصبا وقد أطلب الانفصال وأهدد بالانسحاب
من حياته، دون أن يدفعني هذا بحال لنيان الفضل بيتنا، أو يصل بي
الامر إلى تحطّي حبه بكل سهولة لمجرد أنه تزوج، فقد كنت لأفديه
بروحي على أن أراه تعيشا فكيف يكون لي أن أفصل أن يُغَيِّب الموت
عني!

وربما يحيل إلى القارئ أن في حديثي عن إبراهيم شيء من المبالغة،
لكن من غزفه لن يخالطه شك فيما ذكرت، بل ربما رآه أقل مما كان عليه
في واقع أمره رحمه الله؛ فلم تكن أخلاق إبراهيم وقلبه السخي لي
وحدي، ولم يكن يحتفظ بشخصيتين إحداهما لي والأخرى لبقية العالم
كما قال طه حسين لزوجته سوزان.

كان إبراهيم رفيع الخلق مع كل من يلقاه وبصرف النظر عن صفته
وانتماءاته، كان رحمه الله شامًا رحيما مترفعا عن الضغائن، وبلغ من
حسن خلقه أن بذل المواقع عند أمي رحمه الله، فبدلاً من أن توصيه بي
كانت توصيني به دائماً، مرددة عليّ أحياناً قول النبي عليه الصلاة والسلام
لخويلة بنت ثعلبة رضي الله عنها: «استوصي بأبن عمك خيراً»^(١)، فتقول:
«يا ملاك استوصي بأبن عمك خيراً»، فقد أحبته كأبائها وكانت تصفه

(١) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، لاس بليان الفارسي، تحقيق وتحريج شعيب
الأرمازوط، (٤٢٧٩).

لي فتقول: «إبراهيم طيبٌ كالיום الطيب، أرايت كيف يمرُّ عليك يومٌ طيبٌ لا كذرفيه ولا صخب، هكذا هو زوجك». ومرة كانت رحمها الله في زيارة لنا في الرياض ولاحظت توترًا خفيًا بيننا، فلم تسألني عن فحواه ولا سببه، لكنها قالت لي قبل خروجها إلى المطار: «تجاوزي وأحسني لزوجك وتذكري يا ابتي أن بيتك خرابٌ من دونه»، ورغم محبتي لإبراهيم فقد كنت أضجر في بعض الأحيان من انحيازها الصارخ له وتأيدها الدائم لأرائه عندما نناقش بعض الموضوعات في حضورها، وأقول لها مازحة وأنا أستجديها شيئًا من الانحياز لي: لا أدري هل أنت أمي أم أمه!

كان رصينًا ومتزنًا ونبيلًا ولا ينظر إلينا ككذّين، ولا أذكر أنه أشعرني في أيِّ حوار أو مناقشة بيننا أنه يفرقني فيها علمًا، أو يستمتع بخطئي ليثبت صوابه إلا على سبيل الملاطفة، ولم يكن بحال يستغل صوابه في أي نقاش لإذلالني، وكما قالت جوان ديديون عن زوجها الراحل: «لم أكن مضطرة لإخفاء موهبتي أو إظهار الدونية المعرفية أمامه، كان يفتنه عقلي كأي خصلة أخرى».

أما تعامله مع أولاده فحسبي قول ابنتنا: «إذا تكلمت بعض الزميلات في المدرسة عن آبائهم وتذكرت كيف كان بابا، حمدتُ الله، كان بابا يدخل من الباب فتدخل الرحمة معه».

كان حبيبًا وقريبًا للجميع، لعائلته، وأصدقائه، لأصهاره وأنسابه، حتى أجمع أزواج شقيقاتي على محبته، وسمى أحدهم مولوده على اسمه بعد وفاته رحمه الله.

وهكذا كان في عمله، وبين زملائه في الرياض وزملائه القدامى في القريات، الذين لم يكتفوا بتقديم العزاء فيه ولم يتوانوا عن أداء الكثير

من الأعمال الخيرية له وحبس الأوقاف باسم، بعد وفاته في مواقف نبيلة ومؤثرة.

وهكذا كان مع سكان الحي الذي تسكنه في الرياض صغيرهم وكبيرهم، وقد حدثني عمي الذي كان في الرياض وجاءني لحظة معرفته بالوفاة، كيف جاء بعض الجيران إلى باب بيتنا عند تسامعهم بخبر وفاة إبراهيم، يدعون له بالرحمة والدموع في أعين بعضهم، والأعجب من هذا بكاء سائقي الحي لفقده، إذ خرج عمي للصلاة ليجدهم مجتمعين مع سائقنا أمام الباب يتحدثون عن إبراهيم والدموع تترقرق من محاجرهم. وكيف لا، وأنا التي كنت أرى تعامله مع الناس، وكنت إذا رافقته إلى مكان، فتوقف ليشتري غرضاً وأنا أنتظره في السيارة، أراه يخرج من المتجر مبتسماً فأتذكر قوله عليك الصلاة والسلام: (رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع وإذا اشترى^(١)) وهكذا إذا كنا معاً وتفاوض مع أحد الباعة حول ثمن شيء معين فينتهي الأمر لصالح إبراهيم، والبائع يناوله الشيء وهو يتسسم.

لقد فاضَ ذكره بحسن الخلق بين أهله ومعارفه، ولما مات فاحَ عطره ليملاً الأرجاء حتى أنني عجبت أنا نفسي لاستفاضة ذكره بعد موته. هذا هو إبراهيم.. هذا الذي أكتبُ عنه وأتذكر أنه لم يكن كثيرَ العمل بقدر ما كان زكياً القلب، والحلق.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله، (٢٠٧٦)

جُب الاكتئاب الاضطرابات الصحية اللاحقة

لفرط ما أحاول أن أنسى الوقت
أقع في خطأ الانتظار،
وأعلم أن من هو مثلي
لا ينتظر شيئاً
ولا يرغب في شيء،
لأن الأشياء قاطبة
تقيم في نهارات أحدها
لكيلا يبقى عني
إلا ريمم الأرق، شبيهي،
الذي ما عرفتُ سواه.

بسام حجار

في الأسابيع الأولى من الفقد وقبل العودة إلى الرياض أخذت الوهن
يدب في جسمي، وطلب مني قريبي الطبيب الذي كان إبراهيم يوصيه
بالتواصل معي سابقاً إجراء بعض الفحوصات، فأجلتها حتى عدت إلى
الرياض وعندما قيل لي أنني أصبت بكسل في الغدة الدرقية، وكان عليّ
تناول جرعة يومية من الثيروكسين مدى الحياة، ولأن اضطراب إفراز
الهرمونات في الجسم بعد الفقد كان من الأمور التي تحدث لمن تعرضوا
للفقد؛ فلم أعجب لحدوثه، لكن آخر ما ظنتني سأصاب به هو الاكتئاب،
فمن تخطت أصعب ما في الفقد وتشاغلت عنه بإنجاز مهام الأسرة،
وغرقت في كتابة رسالة الدكتوراء، فلا تكاد ترفع رأسها من مهمة حتى
تنتقل إلى أخرى، في فضالٍ مستمرٍ وقاسٍ ضد الانفراد بالذات ومواجهة

حقيقة فقد وجهًا لوجه، لم تكن مرشحة للإصابة بالاكواب كما ظلت، لكنها لم تكن بمأمن منه أيضًا.

وكنْتُ قد أبقيت كل أشياء إبراهيم في أمكتها المخصصة لها، ثيابه ومستحصراته وعطوره وكتابه الأخير، رغبةً في عيش وهم اللاتعير في فضائي الخاص، وكنْتُ في تأجيل دائمٍ لإدراك ما يتحتم عليّ فعله، أي إزالة أشياءه، وما أن حصلت على الدكتوراه حتى وجدتني أواجه ما واصلتُ الفرازَ هاربةً منه عامًا كاملاً.

نعم، لم أكن قد تعافيت من الأرق طيلة ذلك الوقت، لكنني كنت أوظفه وأستثمره في إنجاز أطروحتي، أمّا وقد أنجزتها فلم يبقَ عدايَ وعداءٌ وحتميةُ المواجهة.

وكان قد مضى عليّ أكثر من عام في معاناة الأرق، وأثر الإرهاق وجِدَّة الوعي في أعصابي، ودمرت قلدي على الاحتمال، فأصبحت أتوتر وأستاء لأتفه الأمور، وانعكست هذه الحال على بناتي وأبنائي، وبينما كنت أنكر حاجتي لاستشارة طبيب وجدتني أنطفي، وأنسحب من الحياة رويدًا رويدًا، فأخذتُ أمضي أوقاتًا طويلة في الفراش بجفنين مرهقين لقلة إغماضهما، وجسدٍ مستفزٍ لكثرة اهتزاز أطرافه، وتفاقم معهما فقدان الرغبة بالمسرات، ومن الانطفاء إلى الآلية؛ إذ أخذت أؤدي أعمالي بطريقة ميكانيكية، وأشارك الأولاد الابتسامات المتكلفة وكأنني أمثل دورًا رغما عن أنفي، واستمرت أحداث الحياة اليومية تسير على هذا المنوال، وتطور الحال فأخذت أفقد الرغبة بالتحدث إلى شقيقتي وصديقتي المقربات، بعد أن تقلَّبت بي الأحوال من صمت الصدمة، إلى ثرثرة الفجعية، فسكون الرماد، وغرقٌ في وحدتي وحزني حتى آخري.

وفي تلك الأعماق السحيقة كنت كفريق يغلبه موج يترابط بعضه فوق بعض فيجهد في التقاط نفسي يقيه على قيد الحياة، لعله يصل إلى من يتطلعون إليه على الضفاف، ولو أنني كنت وحدي لما قاومت من أجل البقاء، لكنني أم وششت أم أبيت علي أن أثبت ما استطعت بخيط أمل يقيني على صلة حيّة بهم.

ومع ذلك فلم يعد بمقدوري النهوض بأعباء أمومي كما في سابق عهدي، وغدوت كجنازة تتحرك وسط موكب من أشباح الماضي بخيالاته وذكرياته، وبعد أن كنت أحمل أسرتي بات عليهم أن يحملوني على أكتافهم، تمامًا كجنازة، وأخذت بناتي الأكبر سنًا ممن يصغرن يُرقعن ما خرقة عجزني من مهام لم أستطع تأديتها تلك الفترة الخائفة مع إخوتهم، لكنني لم ألبث حيث أنا، لم يتزحزح شيء، ولم أفلت مما أنا فيه، فما زلت عالقة في نفس الحلقة المظلمة كقبر والمفرغة من الزمن دون شفق يلوح في الأفق إيدانًا بانجلاء حُتمتها.. أنا التي كنت قبلها بعام واحد فقط أحمل الكُل والكُل على كفتي جاهدة في أن أقطع بهم مفازة هذي الحياة بصبر وجسارة من لا يقعه شيء عن الماضي قديمًا.. وقلبي حينذاك..

قلبي كقلبٍ رؤوم كلما ظلمت
أزوت بينها وفي الرمضاء تصطالُ
في رحلة العمر لا طل ولا شجر
كذا غريبٌ أما في الدربِ رحالٌ^(١)

عندها طلبت مني بناتي استشارة طبيب؛ إذ لم يعد الأمر يخصني وحدي ليخضع لاختياري الشخصي، بل يخصنا جميعًا كأسرة متواشجة،

(١) أبيات من قصيدة للصديقة الشاعرة الدكتور وضحى القحطاني.

فاستجبتُ على مريض، وشُخّصتْ حالتي باكتئاب حاد وخضعت للعلاج لمدة عام، وأخذتُ أتحسن لكنني كنت أراوح ما بين استقرار واضطراب، وكلما أحسست أنني بدأت أتخلل من القيد المحيط بعنقي وجدته يشتد فجأة ويقطع أنفاسي.. نعم، أثر العلاج بصورة إيجابية لكن المشكلة لم تكن دوائية ولا هي معرفية سلوكية فحسب، فكل ما يمكن أن يُقال قيل، وكل ما قيل لي عرفته مسبقاً ودون مساعدة طبيب فقد قرأت طويلاً في الدراسات النفسية منذ فقدي رحمة، وفي خلفية المشهد العلاجي كانت قدرتي على نقض الدعاوى والتحليلات العلاجية تتعاطم، لقد كنتُ أعذب نفسي بنفسي، فأعلق بطريقتي في التفكير والتفسير كل منفذ ممكن للخلاص.

وكدت أقطع عن استكمال برنامجي العلاجي الذي بلغ حدّه الأقصى في الجرعات الدوائية، وحدّه الأقصى في إيجاد منفذ تحاوري مستمرٍ معي، لكنني لم أستجب لهذه الرغبة الملحة بالإقلاع، قاومتها، ولما شعرت أنني أستمِر في التحسن واستقرار وضعي النفسي، بدأت أبحث عن وسائلٍ الخاصة في الاستشفاء، مع مواصلة برنامجي العلاجي، وخلال تلك المرحلة أعدتُ التعرف على نفسي، بعد معمعة الأحداث المتسارعة التي مرّت بي بعد وفاة إبراهيم وإنجار الرسالة، وأخذتُ أتأمل في تأثير معتقداتي الإيمانية في قناعاتي وسلوكي النفسي من ثم، وتذكرت أنني وصلت مرحلة قاتمة إذ مرّ علي أحد الرمضانات كنت أصلي فيه وأدعو وأنا قانطة تماماً من تحسن وضعي، لكنني لم أكن أملك وقتها إلا مواصلة العبادة، لم أملك التوقف عن محاولة استعادة يقيني، والحيلولة دون إزهاق ما تبقى من حسن ظني بربي سبحانه، وكانت مواصلة العبادة هي ما أنقذني لاحقاً.

شفقة .. الإحساس المرير

تَقُلْ قبل أن تمضي
على أنفاس إنسانٍ
فإن العمرَ أيامٌ
وعطرٌ عابر .. فاني

فاروق جويده

ما أبعد أغوار النفس، وما أفسى اكتشاف مدى جهلنا بعمقها، وكنت
أخالني أعرف نفسي حق المعرفة، وأعرف مداخلها ومخارجها وكل
طرائقها في التملص من مواجهة الحقيقة، كنت أضعها تحت المراقبة
المستمرة، ولا أتردد في تقويمها وإعادتها إلى الجادة، إذا ما مالت لهواها
على حساب الحق أو الحقيقة.

ولما ظننتني عرفتها وألجمتها وسيطرت على نزعاتها تمامًا، اكتشفت
أن مقدار ما أعرفه عنها أشبه بمقدار ما يبقى في الكف إذا ما حاولت
قضا على الماء. ومن أشد ما كان يؤذيني في الفقد هو تلك الشفقة
المزدوجة، شعفتي على ذاتي، وشفقة يظهرها الآخرون نحوي وأسرني
بعد رحيل إبراهيم.

كنت أشفق على ذاتي المبتورة بعد رحيل زوجي وحبيبي وصديقي
الذي قطعته معه مدارج العمر، صبيًا فشبابًا فتصحبًا، وأشفق على أولادي
بعد أيهم وصديقهم ومعلمهم، وفي الوقت ذاته أرفض فكرة الشفقة
الساقطة من علي، ولم أكن أرفض من حيث المبدأ التعاطف الصادق
الذي يفسح مجالاً للشعور المتبادل في بُنيته اللفظية وحقيقته الواقعية،

لكنني كنت أحلله تحليلًا سلبياً يفرغه من حقيقته، ويجعل وقوعه على وجهه الصحيح أمرًا مستحيلًا، بل ويجعل من تصديقه صورة من صور خداع الذات.

فقد بذت لي الشفقة على الذات سلوكًا اعتذارياً يبرر الضعف والهشاشة التي اعترتني بعدما وقع لي، وكنت أدرك أن ما أحججه لمواصلة الحياة ليس هذا الإحساس المرير، بل الامتلاء بالقوة، والتفاؤل، لكنني لا أشعر بهما، وكلما حاولت استشعارهما كنت كمن يحاول قبضًا على الريح.

وواجهت بعض المواقف التي رسخت لدي هذا الشعور، بل فاقمته؛ إذ تعرض طفلي سعاد لحادثة تسببت في تهشم عظام فخذه، وكانت الكدمات والخدوش بألوانها الفطيفة تعلو بشرة وجهه، وحفظه الله فلم يلحقه ضررٌ في رأسه، وكان منظره مُريعًا، وعندما تسامخ الأقارب بما حدث، وصلتني رسالة فيها أبيات شعر بكائية لأحدهم يصف فيها طفلي باليتم الذي يرثى لحاله وليس له إلا الله، فلم يخالطني شكٌ في حسن نية قائل الأبيات، لكنني لم أرَ لليُتم خصوصية في الحادثة، فما حدث لطفلي قد يحدث لأي طفل آخر، وما كنت لأمنعه أما أو والده رحمه الله، قَدَرًا كتبه الله عليه.

ولم أكن لأربي أولادي على تعريف أنفسهم بالأيتام، فيكون يتمهم ذريعة لتخاذلهم عما يسعهم تحقيقه، أو ليُمتسي يتمهم علمًا يلوّحون به لاستدراج شفقة الآخرين متى أخفقوا، فاليتم أحزى بأن يُجنَّب هذا كله ويُعد للحياة، فتبنى فيه الاستقامة والمثابرة وعدم التعلق بأعداء واهية للتواني والتفريط في أي جانب من جوانب حياته. لقد كان عليّ عن أحبيهم من هذه المواقف التي يحاصرهم فيها الآخرون تحت عنوان الشفقة والتعاطف.

ثم إنني لم أنج أنا نفسي من التحول إلى موضوع لاستدراار شفقة الغير، على أنني لست محتاجة لأي منهم، وأسوأ ما يكون هذا عندما يعاملك الآخرون كمشروع خيري، فقد حدث أن أرسلت لي امرأة على الواتساب رسالة تخطبني فيها لقريبها، وفي أوصافه ما يبرر رغبته في الزواج بي، وهو أنه لا يترك باباً من أبواب الخيرات إلا ويضرب فيه بسهم! لقد كنت بالفعل مشروعاً خيرياً للاحتساب.

وما هكذا تورد الإبل، ولا هكذا يعامل كرام الناس من ابتلي بالفواجع. وهنا أخذت أحيط نفسي بأسوار وحصون، فلا أذن لأحد أو أمكه من انتهاك كرامتي وكرامة أولادي بشفقة المذلة، ورغم أن وعيي كان يمج الفلسفات العدمية ويشمئز منها، فقد وجدته أعاني من لومة عدمية، فالاشمئزاز من الشفقة مطلقاً تركة عدمية، تزدري الضعف والرحمة بالنفس والآخر، ولا تعترف إلا بمبدأ القوة، ولا تحترم إلا الأقوياء وحدهم. ويشيء من التأمل ومراجعة الأفكار وتحليلها وجدته أعاني من تسلل مثل هذه الأفكار إلى وعيي دون أن أشعر.

وهنا أصبح لزاماً عليّ تنقية وعيي منها، والفرقة بين مفاهيم الشفقة، والتعاطف، والتراحم، الإيجابية والسلبية، وفحص العدسة المعرفية التي تنعكس من خلالها صور تلك المفاهيم في نفسي، والعودة إلى ينباع الصافية من جديد، إلى حسن الظن بالله، والاعتصام به، وصدق التوكل عليه، فما من قوة إلا وتُسَمَّدُ منه سبحانه، وما من مخلوق إلا وناصيته بيد القوي العزيز تبارك وتعالى.

وصحيح أن الانتباه لمثل هذه الأفكار المتسربة إلى وعيي جاء متأخراً لكن مجيئه كان ضرورياً ومُتَجَبَّاه، إذ عدت إلى نصوص الرحمة القرآنية،

والجسد الواحد في السمة النبوية، ووقفت وقفاً طويلاً على قوله سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٣٣﴾ الَّذِي يَرْثُكَ جِئْنَ تَقُومُ ٣٤ وَقَلْبُكَ فِي السَّجْدِ ٣٥﴾ [الشعراء: ٢١٨]؛ إذ الرحمة تستمد من العزيز الرحيم سبحانه، وانتهت إلى تكرار اجتماع صفات القوة والعزة في آيات القرآن الكريم، فقد تكررت في سورة الشعراء وحدها ثمان مرات، وتأملت اجتماع هذين الاسمين (العزة بمعنى القوة والقهر والمنعة، والرحمة)؛ إذ لم يجعل المولى سبحانه من الرحمة نقيضاً للقوة فيما وصف به نفسه، فكيف يسع الإنسان ضرب المفاهيم بعضها ببعض وافترض تنافر بين القوة والرحمة، وتأملت السياقات التي ورد فيها هذين الاسمين، فلم أزد إلا يقيناً بأننا لا يمكن أن نستنفذ معاني القرآن من قراءة واحدة، ولا موقف واحد، بل ولا مائة، ولا أكثر، فما تزال المعاني تتدفق بين يدي القارئ له، وما يزال الإنسان يتقلب بين مواقف الحياة محتاجاً لهداية، وتسديد، وخبر، وإعانة.. وليس ثمة وجود لهذا كله إلا في القرآن.

وهكذا أخذت تستوقفني آيات القرآن التي طالما تلوتها ولم تسيبني لي معانيها كما استبان في ذلك الوقت، ومن ذلك صيغة المفاعلة في قوله تعالى في سورة العصر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ٥﴾ وقوله سبحانه في سورة البلد: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ١٧﴾، فالؤمنون يوصي بعضهم بعضاً بالصبر، ويرحم بعضهم بعضاً.

وفي حديثه عليه الصلاة والسلام: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)^(١)، ما يدفع الانفراد بالألم، أو إسقاط الشفقة من علي؛

(١) أخرجه مسلم من حديث الحماد بن بشير رضي الله عنه، (٢٥٨٦)

إذ البلاء قدرٌ جارٍ على البشرية كلها، والتواد والتراحم والتعاطف متبادل ومتصل، ولا أقول دَينٌ مسترد، إذ الشعور يسري في المحزون سريانه في صاحبه؛ وما منّا إلا وفاقد أو فقيد، وما منّا بمحصن عن المصائب والابتلاءات في بدنه، وأهله، وماله.

ولا يعني حديثي عن مواقف الشفقة السلبية التي جابهتها، عدم التحقق الواقعي للمعنى الشرعي المقابل للتعاطف والتواصي بالصبر والمرحمة زمنَ الفقد، وإن أنسى فلا أنسى مهاتفة الزميلة الدكتور لبنى الراشد لي وقتئذ، فلُبّني عايشة الفقد برحيل والدها الطيب عبد العزيز الراشد رحمه الله، ومن منطلق المعاشية والتواصي حدثتني لبنى حديث الحامد الشاكر، حديث من يشر الآخرين بكلاءة الله ورعايته وفضله ورحمته، وأن ما وقع إنما تتجلى فيه رحمةٌ من رحماته سبحانه، وما أزال أتذكر عبارتها حين قالت أن لا والد يعوض عن والدته، ولا العكس، ومع ذلك فالحمد لله أن أبقى الأم يا ملاك ! وأخذت تضيء لي هذا المعنى بكل ما استطاعت من قوة، لم ينقصها فيها الاستدلال والبرهنة، ولَفّت انتباهي لمواضع الرحمة والحكمة في القضاء المحتوم، ولم يغيب عنها صدق الشعور وسموه.

وما أود قوله بصورة أوسع وأبعد... إن الابتلاء عمومًا والفقد بخاصة لا يخلو من ابتلاءاته الخاصة منذ وقوعه أو لحظة تلقي الخبر بوقوعه، نعم، قد يأتي الابتلاء وقد طوى داخله ابتلاءات أخرى، ولا يُشترط أن يكون له نقطة بداية ونقطة نهاية تتلاشى عندها أحزانُ صاحبه، فقد يستصحب الإنسان معاناته طيلة بقائه على قيد الحياة، لكن الطاف الله لا تنفك عن قدره.

وبعبارة أخرى ليس للفقد بالضرورة مرحلة ختامية تنتهي بسلام
مطلق مع النفس والناس، ولأن ما من قَدَر يخلو من الحكمة مطلقاً، فيظلُّ
الفقدُ دافعاً لفهم النفس في أطوارها المختلفة، ودافعاً للتأمل في مدى
فاعلية المعاني الدينية في حياتنا، وقد أجرى الفقدُ جرّداً شاملاً ودقيقاً
لمعرفتي الدينية السابقة، وحملني على مراجعة كل تلك المعاني والعوص
فيها من جديد؛ إذ المعرفة، أعني مجرد معرفة تلك المعاني شيء، وتأملها
والتعمق فيها واستشعارها شيء آخر.

وهم الحياة الجديدة

ختمتُ على وداك في ضميري
وليس يزال مختومًا هناك

بهاء الدين زهير

ما زلت أذكر مواساة إحدى قريباتي الحبيبات زمن العزاء، وهي
تربتُ على كتفي قائلة: لا تنظري إلى رحيل إبراهيم على أنه نهاية
الحياة، بل انظري له على أنه بداية لحياة جديدة!

كان وقع هذه الكلمة على سمعي في ذلك الوقت مُربِّكًا؛ فكلمة
(جديد) وبعيدًا عن معانيها القاموسية، لا ترتسم في ذهني ونفسي إلا
بصورة بهيجة تذكرني أول ما تذكرني (بالعيد). والجديدُ عندي هو ما
يملك ميزةً على سابقه، والجديدُ يشيرُ إلى الجميل المرتقب، والجديدُ
يُستجلبُ لضعفِ كفاءة القديم أو استهلاكه، ويُفضي الجديدُ إلى
التخلي عن القديم أو إهماله، وهذه المعاني لا تنطبق على الفقد الذي
عنى لي معنى واحدًا لا غير؛ إذ الفقد عندي هو (النهاية) نهايةُ حياةٍ،
وعلاقةٍ، وحضور. وكما قالت الكاتبة جوان ديديون: «هذه ليست قصةً
يقودُ تسلسلُ الأحداث فيها إلى حياةٍ جديدة»^(١).

إن الزهرة التي تنبتُ وسط الخرابِ، تنبتُ بالأمل، لكنها لا تُغيّر من
واقع ذلك الخراب شيئًا.. واستئناف الحياة وسط الموت كذلك، إنما

(١) هام التفكير السحري، ص ١٨١.

هو إصافة موازية لحقيقة قائمة لا إلغاء لها؛ ولذا لا يسعنا دائماً محو ما كان وإعادة التشكيل من جديد.

وكنْتُ إذا ما نوقشتُ في هذه الفكرة، تُذكرُ لي قصة الصحابة الجلييلة أم سلمة رضي الله عنها بعد وفاة أبي سلمة رضي الله عنه^(١)، وكأنَّ من يورد القصة يتغافل عن أن أبا سلمة لم يُغفَّ في أهله إلا نبي! وهذه سابقة الدهر وخاتمة.

بل إنني كلما تذكرت أم سلمة وهي تدعو (اللهم أجري في مصيبي وأخلف لي خيراً منها) مستبعدة من ذهني تماماً آنذاك أن يخلفها الله نبياً كريماً صلوات ربي وسلامه عليه، ومتسائلة: (ومن خير من أبي سلمة!) كلما تردد صدَى هذا المعنى في أعماقي فأرددُ بدوري: (ومن خير من إبراهيم!).

ولست أدعو بقولي هذا إلى التبتل، أو أكذبُ بخلف الله لعباده، أو أطمعُ في وفاء من استأنفن حياتهن مع أزواج آخرين بعد الفقد، وما أود قوله هو أن خلفه سبحانه لا ينحصر في إخلاف زوج بزوج، فلفظ الدعاء عام وليس خاصاً بمن فقدت زوجاً، ومن الناس من لا يخلفه أحدٌ من الخلق، كالآب والأم، وفضل الله واسع، وحكمته بالغة، وقدرته شاملة لألوان من الخلف كما قال سبحانه في سورة آل عمران: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٧٤].

والناس ليسوا سواء في تجاربهم مع الفقد، وإن صَحَّ الوصف كما قلتُ من قبل، فهناك توارىخ من الفقد، لا يقارَن بعضها ببعض، ولا ينطبق بعضها على بعض، فأن نستأنف الحياة في مقبل العمر، أمر

(١) راجع النص الكامل الذي أخرجه مسلم من حديث أم سلمة، (٩١٨)

يختلف عن استئناف الحياة متأخرين، وخوض تجربة جديدة نجرُّ معنا إليها كل ما تشريناه في حياة سابقة تشكّلت قبل هذه التجربة ويمعزل عن ظروفها الخاصة.

وما الداعي لاستجلابها؟ وليست تغني عمن فقدنا شيئاً، إذ الفقد بئرٌ كما قلت، وما كان لاستبدال عضوٍ بئرٍ من أجسادنا بقطعة بديلة أن يبعث أحاسيس الحياة فيما بئرٍ مثلاً، نعم، قد يؤدي البديل دوراً وطيفاً قريباً من الأصل، لكنه لن يحلّ محله بكل المعاني الممكنة.

ولذا فلاني لا أفهم الخُلف بصورة واحدة وتحقّق واقعيّ واحد، بل أفهمه في ضوء القدرة والحكمة الإلهية الشاملة الواسعة، ولأنني أدرك أن هذه الحياة جُبلت على كدر، فلست أنطلُب منها غير ما جُبلت عليه، ووطُنْتُ نفسي على أن الفقد مرحلة مفصلية في حياة الإنسان، ومثله مثل أمور أخرى تجري على سُنّة الابتلاء في هذه الدنيا، نعيش معها دون تطلع لعودة عقارب الساعة إلى الوراء، فما وقع، وقع وانقضى، وما بقي هو التعايش معه بروح المؤمن بأن ما عند الله خير وأبقى.

وما بين الاعتراف بلحظات المعجز، وتخطي مرحلة الصدمة والإشفاق على الذات والتأقلم مع التغيرات الناجمة عن الفقد، مسافة لا تقاس بالزمن، ولا ينبغي استعجال التعافي منها، مع بذل الأسباب المعينة عليه، فتعجّل الشفاء من الأوجاع يسقط بصاحبه مهكاً، مرتعياً على ما جفّ من صبره في نهاية المطاف.

وصحيحٌ أننا كلما تذكرنا الغائبين تجرّعنا غصصَ فراقهم، لكننا نحمد الله أن أخذنا نصيبنا الوافر من الحياة بقربهم، ونهلنا أعدب لحظاتنا معهم، لنبقى رغم الفقد في غُنية عما يبدُ مسدّهم من بدائل لا

تُضاهي ما فقدنا، أو سعادة متوهمة، أو قصة حب أخرى، فالحب كما قال نزار: (مثل الموت والولادة لا يُعاش مرتين).

وكما قالت لميعة عباس عن وَهْم الارتقاء على العزائم البديلة:

تَقْرَى الشبيه بالحسنِ كني تنعم العينُ بالقريب المباح

ثم عادت لتعترف بعجز أي بديل عن أن يَسُدَّ مَسَدُ الأصل عندها، فأتت بيتها الأول بقولها:

ليس تُغني عن وجهِ أمي وإن شاخ كل هذي الوجوه الملاح

وأعود إلى التأكيد أن تجربتي خصوصيتها كما لكل تجربة أخرى، لذا فهي لا تنطبق بالضرورة على سواي، فالفقد في خريف العمر يختلف عن الفقد في ربيع أو صيفه.

ملاذات الفقد

مراقى الذاكرة الوجد والفقد في كتابات الزوجات

للشبابيك سماء

للعصافير فضاء

للخطى دربٌ وللنهر مصبٌ

وأنا .. للذكريات

محمود درويش

لجبران خليل جبران كلمات في أنسي المحزونين بالمحزون، يقول فيها: «إن النفس الحزينة المتألّمة تجد راحةً بانضمامها إلى نفسٍ أخرى تماثلها بالشعور وتشاركها بالإحساس مثلما يستأنسُ الغريبُ بالغريب في أرضٍ بعيدة عن وطنهما؛ فالقلوب التي تُذنيها أوجاع الكتابة بعضها من بعض لا تفرّقها بهجة الأفراس وبهرجتها، فرابطة الحزن أقوى في النفوس من رابطة الغبطة والسرور»^(١).

ولأنني قارئة فلطالما وجهتني بوصلتي العكسية إلى المكتبة، فاعتدت البحث عما يشاغلني من تساؤلات بين دفعتي الكتب، وعشت بينها زمناً طويلاً، فكانت أنيسي ومعلمي وطيبتي وملاذبي، والمساحة التي أتحرك فيها بحرية مطلقة، بلا أقنعة ولا حواجز ولا إشارات توقف.

علمتني القراءة الإصغاء طويلاً لما يقوله الكتاب، ومنحتني ما لم يمنحه لي كثيرون، فلم تحفني بالجمال وتعلمني تذوقه وتقديره فحسب،

(١) الأجنحة المنكسرة، ترجمة د. جميل بدر، ص ٦٢-٦٣

بل دريتني على اليقظة الذهنية، وتقدير التفاصيل دون إهمال الصورة الكلية، علمتني الانتباه لجِئَلِ الكتاب ومغالطاتهم، وإزالة كل زَنَبٍ يحول دون إدراك الحقائق، وكم أكرمت القراءة تساؤلاتي وشجعتني على الإفصاح والاعتراض والتحاور.

وعندما أخفقتُ في فهم ما أمُرُّ به فترة الفقد قصديتها، وإلى مرافق الكتب كانت وجهتي، فأخذتُ أفتشُّ في كتابات الزوجات عن أزواجهن، وعن تجاربهن في الفقد، عن شيهاتي في الحزن، لعلَّ يَدًا «تمتدُّ نحوي كييد من خلال الموج مدَّت لغريق»^(١).

ولم أقصد البحث الاستقصائي بل الاطلاع على ما يسعني قراءته مما نشر في المكتبات. واهتممت بالكتابات المنشورة في منطقتنا العربية لتشابه الثقافة والتجارب، وكنت على قناعة بأن التجارب الإنسانية تتقاطع وتتشابه في بعض الجوانب وإن اختلفت الثقافات، فليس الفقد محض تجربة ذاتية بل تجربة كونية في الوقت ذاته؛ فما من فقد إلا ويحدده ويرسم تجلياته سؤال المعنى، وما من فقد إلا ويعمل الزمنُ والذكريات فيه عملهما.

وفي معظم كتابات الزوجات المتمية إلى محيطنا الثقافي لاحظت حضورَ الوجدان أكثر من الفقد، ولَفَتَنِي فيها صخبُ الحياة أكثر من أصداء الموت، فهل كان استحضار قصص الحياة هو الوسيلة الشائعة للتعزي عن الفقد؟ أو هل بدائي أن كتابة الزوجات عن الأزواج الراحلين كانت تمثل لهنَّ مهمة سامية، يسجلن فيها شهادتهن على الفترة التي رافق فيها أزواجهن، ويطلعن القراء على تفاصيل لم يسق لها الخروج

(١) من قصيدة الأطلال، لإبراهيم ناجي.

للحياة العامة، ويُعلن فيها الوفاء لذكرهم، ويدفعن بها لاستمرار حضور
الراجلين في دنيا الناس لا في دنياهن فحسب؟

لا يخفى أن معظم تلك الكتابات تندرج في نوع كتابي يعرف بأدب
السيرة الذاتية، الأمر الذي يُفسر ملاحظتي الأولى حولها، ومع ذلك فقد
بدا لي وكأن الكتابات يحين تقليدًا ثقافيًا جاهليًا حين كان العرب أيام
الحج يتحدثون بمفاخر الآباء ومآثرهم.

هذا ما لاحظته في الكتابات المتمية إلى محيطها الثقافي إجمالاً،
بمعكس ما لاحظته في الكتابات الصادرة عن الغرب؛ إذ كانت أكثر غوصًا
في التجربة، وأكثر إفصاحًا عما يحول داخل الكاتبة من أفكار وهواجس
ومخاوف. وأقول هذا من منطلق التحليل لا منطلق المفاضلة الثقافية.

وبدا لي بعد التأمل تأثر كلا الفريقين بالثقافة التي احتضنت تجاربه،
فكما ظهر في كتابات العربيات نزوعٌ نحو حكاية المآثر والمراثي، فقد
تأثرت كتابات الغربيات بثقافة الاعتراف المنبثقة عن طقس الاعتراف
المسيحي، إذ يكسر الاعتراف حاجز التكم ويصبح صاحبه أكثر قدرة
على البوح بأشد الأمور حساسية دون أن يجد حرجًا في هذا، وقد أثر
هذا الطقس في الفنون والآداب كما في كتابات الأديب النمساوي ستيفان
زفايغ؛ إذ يمثل الاعتراف أحد ثيماته الأساسية.

ولعل أكثر كاتبة تناولت فقد الزوج وتمكنت من استشفاف أبعاده
برأيي هي الفرنسية جوان ديديون، وسأفرد الحديث عن قراءتي لكتابها
في الصفحات القادمة، قبل أن أتحدث عن كتابات أخريات عن أزواجهن.
على أنني لا أوغل في تأمل التجربة الإنسانية إلا والمس التناص
العميق فيها، وكأن حيواتنا نصوص تتداخل وتتعلق ويستدعي بعضها
بعضًا

وهذا ما سيلاحظه القارئ، فتجاربنا في الفقد ترجع إلى قصة واحدة هي الحب، والحب واقعة متكررة في التاريخ الإنساني وإن كان لكل منها طابعها الذي يميزها عن غيرها.

ولا بد من القول أخيرًا إن قراءتي لتلك التجارب قراءة تفاعلية، تُحاور، وتستشكّل، وتربط، وتقارن، وتستدرك، دون التزام بمساحة محددة، ولا طريقة واحدة في التناول، وإنما هي قراءة الساحة عن محيط ضوء يمكنها من إبصار طريقها الذي انعطف بها فجأة إلى مكان لم تعهده من قبل، ولم تتوقع السير فيه.

بين كونية الفقد وخصوصيته

جوان وجون ديديون

تنبأت بانهار جرفي
في كاليفورنيا فأنهار،
لكنني ما تنبأت يوماً
بقلب يتوقف
على مائدة العشاء،
ليعلن الختام.

جوان ديديون

سبق وأن قلت إن الفقد تجربة كونية رغم خصوصيتها الظرفية، ويتبدى هذا في كتاب جوان ديديون (عام التفكير السحري^(١)) أكثر من غيره.

فقدت جوان زوجها جون بعد أربعة وأربعين عامًا من الزواج، ورغم خصوصية تجربتها فقد استطاعت أن تجسد في سرديتها الخاصة حول الفقد أبعاد الكونية المشتركة بين الفاقدين، لا تجسد تجربتها الشخصية وحدها. ولا أرمي بقولي هذا إلى تعميم هذه الأبعاد على كل من فقد عزيزًا، فهي لا تصدق إلا على أولئك الذين جمعتهم علاقة قوية وطويلة وحميمة مع الفقيد، علاقة تحدث الوقت وقاومت ما يحدثه في العلاقات من تصدع وجفاف وتفتت، علاقة اتسمت بتعدد القواسم الجامعة بين الشريكين، وتنوعت فيها تجليات الحب، والصداقة، والاهتمام المشترك، علاقة لا تنتهي حيوتها بإشباع الاحتياجات الغريزية، ولا تنقطع أواصرها

(١) مذكرات من ترجمة شادي خرماشو.

بنفاد الصبر على الصعبة الطويلة، علاقة تتجدد من داخلها لا بمظهرها وشكلها الخارجي فقط. علاقة يغذيها الزمن ويضفي عليها أهمية خاصة ولا يُسوّغ الهروب منها لعلاقات بديلة يلاحق فيها أحد الطرفين إكسير الشباب في آخرين؛ أقول هذا لأن للفقد لغة مشتركة لا يفهمها إلا من عاشها.

وبهذه الأبعاد الكونية للفقد سأستهل الحديث عن كتاب عام التفكير السحري، إذ تجربة الفقد التي عاشتها جوان لم تنتهي بها للتمحور حول ذاتها الموتورة، فلا تبصر إلا وجمعها، بل أمتت تستشف ما تحدثها به ملامح الفاقدين، حتى لم يعد يخفى عليها الوشم (النظرة) التي يخلفها الفقد على وجوه المفجوعين به، فتقول: «الأشخاص الذين فقدوا عزيزًا تميزهم نظرة معينة تُرى على وجوههم خلال الفترة القصيرة التي تعقب الفجعة... نظرة قد لا يدركها سوى أولئك الذين ارتدوا هذه النظرة ورأوها على وجوههم. كنت قد لاحظت تلك النظرة على وجهي، كما لاحظتها على وجوه الآخرين. نظرة مليئة بالضعف، بالعري، بالضيق. نظرة شخص خرج للتو من عيادة طبيب العيون فصعقه ضوء النهار بوهج جعل حدقتيه تتسعان، أو نظرة شخص يرتدي نظارات وأجبر على خلعها حين غرة. هؤلاء الذين فقدوا عزيزًا يبدوون عراة لأنهم يعتقدون أنهم غير مرئيين. أنا نفسي شعرت أنني غير مرئية، على الصعيد المعنوي لا الجسدي، لفترة من الزمن. بدت كأني قد عبرت أحد تلك الأنهار الأسطورية التي تفصل عالم الأحياء عن عالم الأموات، ودخلت مكانًا لا يمكن أن يراني فيه إلا أولئك الذين فقدوا عزيزًا منذ وقت ليس ببعيد»^(١).

(١) عام التفكير السحري، ص ٢٠.

وما كانت تراه من آثار الفقد على الوجوه ظل يشغل ذهنها حتى قالت:
«أفكر في معارفي ممن فقدوا زوجة أو زوجًا أو ابنًا. أفكر تحديدًا كيف
بدا هؤلاء عندما التقيت بهم بالصدقة، في الشارع، أو وهم يدخلون
إحدى القاعات مثلاً بعد عام أو نحوه من الفجيرة. ما صدمني في كل
مرة صادفت بها أحدهم هو كم بدا مكشوفًا وعاريًا ومتهكًا، كم بدا
مسحوقًا، كم بدا ضعيفًا. كم بدا كل هؤلاء فاقدين للآزان. الآن بثُّ
أنهم»^(١).

وتضيء جوان بتجربتها بُعدًا آخر من أبعاد الفقد الكونية، وهو ألم
الانفصال عن الفقيد بعد علاقة التصاق طويلة، وما يعقب هذا الانفصال
من معاناة الوحدة بعد غياب صاحب. ولم تكن جوان وزوجها جون
محاطين بالعديد من الأبناء والبنات، بل كانت لديهما ابنة واحدة متبناة،
وكانت طريحة الفراش في المستشفى عند وفاة والدها. ومع ذلك فمهما
كثر المحيطين بالمكلم يظل مكان الفقيد شاغرا في العقل والقلب
والزمان والمكان. حقيقة صاغتها جوان بقولها: «وحدة من يُفجع بموت
عزيز يُترك وحيدًا بكل ما للكلمة من معنى وقسوة»^(٢).

كان جون وجوان يقضيان معظم الوقت معًا، وكما قالت: «لم نبتعد
عن بعضنا إلا فيما ندر»^(٣)، «وكنّا متكافئين في عدم تخيل الحياة دون
الآخر»^(٤)، حتى كأن الزمن نفسه توقف عند اللحظة التي التقيا فيها، وهنا
تذكر جوان كيف بدأت تشعر بمضي العمر بعد موت جون، بعدما كانت

(١) هام التمكير السحري، ص ١٥٦

(٢) نفسه، ص ١٧٨.

(٣) نفسه، ص ١٥١

(٤) نفسه، ص ١٨٠.

تري نفسها دائماً في سن التاسعة والعشرين، السن التي كانت عليها عندما
الثقة، وعقبت: «الزواج ذاكرة، الزواج زمن، وهو للمفارقة نكران
للزمن»^(١).

وإذا بالحياة التي كانت قسمة في كل شيء، أصبحت باعثة للألم،
وإذا بالحاجة الكامنة فيها للتفاكر والشاعر لا تموت بموت الطرف
الأخر بل تبقى بعده لتلهب مشاعر الفقد كلما تجددت، وقد ذكرت جوان
أنه ما كان يوسعها أن تحصى الأفكار التي كانت تخطر ببالها خلال اليوم،
فتشعر بحاجة دائمة إلى مشاركتها مع جون، لتدرك عند ذاك أن هذه
الحاجة لم تمت بموته، وما مات بالفعل هو إمكانية تلقي ردٍّ منه!

وكانت هذه الحاجة مستفزة باستمرار، فإن مرّت بأحد الشوارع أو
الأمكن التي كانا يرتادانها سويًا ولا حظت تغييرًا، كانت تتساءل حول ما
إذا كان هذا التغير سيثير اهتمام جون لو كان موجودًا؟!

وحين استأنفت الكتابة بعد موته، كانت المقالة التي كتبتها أول نص
تكتبه ولا يقرأ جون مسودته، حتى أنها فقدت القدرة على إتمامها، ولم
تستعد تلك القدرة إلا بعد أن هيأت لنفسها أنها تلقت رسالة من جون
يقول لها فيها: «أنت كاتبة محتوى، أمجزي المقالة»^(٢).

وما يشبه ألم الاعتياذ في الزواج أنه يصبح بعد العقد أشبه بالترقب
الذي ينتهي بحياة أمل، وهو أحد الأبعاد المشتركة بين من فقدوا أزواجهم،
كما كان يحدث مع جوان عندما تأتي حاملًا معها أحارًا كانت ستشير
اهتمام جون، فتدخل المنزل وتضع المفاتيح على الطاولة قبل أن تذكر

(١) عام الصيكر السحري، ص ١٨١

(٢) ص ١٩٦.

أنه ما من أحد هناك لتقص عليه ما حملته من أخبارا وهنا تستدعي جوان اقتباسًا يفسر هذا الإحساس كنايةً مستبيل بعد موت زوجته، يقول فيه: «مرّد هذا إلى الإحباط المتأني من الدوافع والحاجات الكثيرة التي قد أصبحت أمرًا اعتياديًا. فكرة تلو أخرى، وشعور بعد آخر، وفعل يتلوه آخر، يصبح هذا جزءًا من حياتهم. هدفهم قد اختفى الآن. أظُلُّ بحكم العادة أضغ السهم على الوتر وأوضعه جيدًا وأسدّد، وقبل أن أقذفه أتذكر، وأصع القوس جائبًا. كل الطرق كانت تقود إليها (يعني زوجته الفقيدة) أما الآن فثمة حدّ أخير لا يمكن تجاوزه، الكثير من الطرق المفتوحة فيما مضى أصبحت الآن طرقًا مسدودة»^(١).

ويشير هذا الاعتياد والاتصاق بالطرف الآخر ردود فعل متناقضة تجاه الأمكنة التي جمعت الطرفين أو عبرها سرّيًا، فتارة يكون رد الفعل تجاهها الاستحضار والتساؤل، وتارة يكون التحاشي والابتعاد، وتارة يكون الأنس والبقاء، فرغم أن جون توفي في منزل الزوجية فلم يدفع هذا الأمر جوان لهجر المنزل، بل انتهى بها إلى الاحتماء بين جدرانها، وقد ذكرت أنها فقدت الرعية في الخروج من المنزل ومواجهة الحياة خارجه.

وحينما يفتح الغياب أبوابه على مصراعيها، تجتاح المكلوم أشكال القلق والمخاوف، ويمتد تأثير الفقد إلى جوانب أخرى لتصبح الهشاشة هي الجواب العملي لحال المكلومين بالفقد، وتتخذ ردود فعلهم نحو الأمكنة اتجاهًا آخر، فيميلون إلى تجنب الأمكنة التي تذكرهم بلحظة الفقد، فقد ذكرت جوان كيف كانت تنفّس تنفّدي تناول الطعام في العرفة التي

(١) هام التمييز السحري، ص ١٧٩.

سقط فيها زوجها السقطة الأخيرة، فكبت: «في شهر يونيو عندما أصبحت فترات الغسق تمتد لوقت أطول أجبرت نفسي على تناول العشاء في غرفة الجلوس حيث يتوفر ما يكفي من النور. كنت قد بدأت الطعام في المطبخ بعد وفاة جون، غرفة الطعام كانت كبيرة جدًا وطاولة الطعام في غرفة الجلوس كانت موضوعة في البقعة التي سقط فيها سقطة الأخيرة، لكن عندما أصبحت فترات الغسق طويلة انتابني شعور قوي بأنه يريدني أن أرى النور، وعندما أصبحت فترات الغسق أقصر انسحبت مرة أخرى إلى المطبخ»^(١).

وبمقابل الاعتماد هما يذكرنا بالفقيد، تطفو ظاهرة أخرى معاكسة وهي استبقاء أشياء حولنا والتشبث بها، ويذكرني هذا بما ذكره باسكال مرسيه في روايته (قطار الليل إلى لشبونة) عند حديثه عن الشخصية الرئيسة لروايته، أماديو، وكيف أوقفت أخته عقارب الساعة الحائطية عند اللحظة التي فارق فيها الحياة!

هكذا فعلت جوان مع أشياء جون: «ساعة المنبه تلك التي كانت قد توقفت عن العمل في العام الذي شهد وفاته، ولم يكن من الممكن إصلاحها، وبعد أن فارق الحياة لم يكن من الممكن رميها. لم يكن من الممكن حتى تغيير مكانها على الطاولة قرب سريري»^(٢).

وعن الضعف والهشاشة وفقدان الاتزان بعد العاجعة، تحدثت جوان عن ذلك الخوف الذي ملا كيائها، وكيف أصبحت الأحداث الصغيرة والعابرة تخيفها، كما في ذلك اليوم الذي علق فيه طرفُ صيدلها بين حجارة الرصيف، وكادت أن تسقط، ثم أخذت تساءل بعد أن نجحت

(١) عام التكبير السحري، ص ١٥٠.

(٢) نفسه، ص ١٥٢.

في تفادي السقوط: «ماذا لو أنني لم أنجح في تجنب السقوط؟ ماذا لو سقطت؟ أي عظمة كانت ستتكرر؟ من سيتمكن من رؤية الدماء تسيل على ساقِي؟ من سيوقف لي سيارة أجرة؟ من سيذهب معي إلى قسم الطوارئ؟ من سيعود معي إلى المنزل؟ توقفتُ عن ارتداء الصنادل. اشتريتُ زوجين من أحذية بوما الرياضية وبتُّ لا أتعلم سواهما»^(١).

ولأنها كانت تقيم وحدها في المنزل فقد تضاعف خوفها، وبدأت تترك المصباح مشتعلاً طيلة الليل، والسبب كما قالت: «في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلمًا لم يكن بإمكانني أن أغادر السرير لأدوّن فكرة أو عبارة، أو لأبحث عن كتاب أو لأتحقق من أنني قد أطفأت فرن الطبخ. في تلك الليالي التي كان المنزل فيها مظلمًا كنت أستلقي في سريري بلا حراك تتابني رؤى مرعبة عن المخاطر الكامنة في المنزل... الكتب التي قد تنزلق من الرف لتقع على رأسي وتفقطني الوعي، الحصيرة التي قد تنزلق من تحت قدمي في الممر، خرطوم الغسالة الذي قد يفلت من عقاله ليجمع المياه تغمر المطبخ من دون أن أتمكن من رؤية ذلك في الظلام... أدركت أن تلك الأفكار كانت أكثر من توجس مفرط وحذر شديد»^(٢).

وكان هذا الضعف الذي اعتراها يسارع للظهور بمجرد أن يحركه أدنى شيء ولو كان مسرًا عابرًا، كما حدث عندما ذهبت لرؤية طبيب من أصدقاءئهما، لإجراء فحص روتيني، فسألها كيف حالها فأنفجرت بالبكاء رغم أن السؤال يفترض ألا يشير لديها أي اضطراب. ولأنها تدرك أن أكثر ما يضر بالإنسان ركونه إلى ضعفه وهشاشته وجعلهما تبريرًا

(١) هام المحكير الحري، ص ١٥٤.

(٢) نفسه، ص ١٥٤.

لتردّيه الاختياري في دركات اليأس فقد استنكرت تلك الشفقة على الذات التي لمستها من نفسها، كما في قولها: «بسرعة تتغير الحياة، في لحظة تبدل الحياة، تراك جالسًا تناول العشاء وإذا بالحياة التي تعرفها تنتهي. أيُّ شفقة على الذات تلك؟»^(١).

تلك الشفقة هي ما حاولت جوان تجاوزه، بتذكر العطايا التي كانت تتمتع بها طيلة حياتها، فقالت: «ما لبث أقول لنفسي إنني كنت محظوظة طوال عمري، وأن ذلك لا يعطيني الحق بأن أفكر في نفسي كشخص تعيش الحظ. هذا ما وصلت إليه لاقتناعي بالقدرة على تجاوز مسألة الإشفاق على الذات، حتى أنني صدقت الأمر. لكنني بعد ذلك بدأت أتساءل: ما علاقة ذلك بالحظ؟ عندما تأملت الأمر لم أجد أية مناسبات ليعبّ فيها (حسنُ الحظ) دورًا في حياتي»^(٢).

ولأنها تستحضر في كتابتها سببها عقلانية، فقد أخذت تبحث عن المصدر الذي يتسبب بالشفقة على الذات، وانتهت إلى أن غياب الطرف الآخر (الفقيد) يجعل التركيز على النفس مصدرًا طبيعيًا للشفقة على الذات.

ولأنها عانت من صعوبات إجراء حوارات اجتماعية طيلة العام الأول لوفاته، فقد أخذت تبحث عن تفسيرات منطقية لما يحدث معها لتدفع ذلك الشعور البائس بالشفقة على الذات فتقول: «في مناسبات كهذه أسمع نفسي وأنا أمذل جهدًا وأفشل. ألاحظ أنني أبهص عن المائدة بقطعة مفرطة. ألاحظ أيضًا أنني لا أمتلك المرونة التي كانت لي منذ

(١) عام التمييز السحري، ص ١٧٩

(٢) نفسه، ص ١٥٨.

عام مضى. يحل بك عدد معين من الأزمات والفجائع فتتوقف تلك الآلية التي تغمر جسدك بالأدرينالين عن العمل. يصبح حشد طاقتك حلاً لا يُعَوَّل عليه، وعملية تحدث ببطء شديد أو لا تحدث بالمرّة»^(١)

وحين قرأت جوان دراسة في مجلة (ديداالوس) عن أن الأرملة العادية تستغرق سنوات لتستعيد نمط حياتها المعتاد، ومستوى رضاها عن حياتها، وتتخطى أزماتها بعد وفاة زوجها، تساءلت جوان: «أكنتُ أنا أرملة عادية؟ ماذا سيكون مستوى رضاي عن حياتي؟ وهل سأستعيد المستوى الذي كان عليه قبل رحيل جون؟»^(٢).

هكذا كانت تبحث جوان لتعثر على سبب يقف خلف كل إحساس أو موقف يثير تساؤلها واستغرابها بعد العقد، وتدقق في كل تفسير ممكن له، كما في تساؤلها عن السبب الذي يدفعنا لإبقاء أمواتنا أحياء، وقولها: «نحاول أن نبقىهم على قيد الحياة ليستمر وجودهم في حياتنا.. لنقى نحن أحياء»^(٣).

وتكمل جوان حديثها عن المعرفة المعقدة النابعة من جوابها السابق، تلك المعرفة التي لا يمكننا الانتفاع بها ولا تحويلها إلى معرفة عملية، فتضيف: «أعرف أيضاً أننا إذا ما أردنا نحن أنفسنا أن نحيا يأتي وقت يتوجب فيه علينا أن نتحلى عن موتانا، أن نعتقهم من تعلقنا بهم، أن ندعهم وشأنهم، أن نسمح لهم بالموت. أن نسمح لهم بأن يصححوا صورة نحفظ بها على الطاولة. أن نسمح لهم أن يتحولوا إلى اسم يظهر

(١) عام التمكير السحري، ص ١٩٦.

(٢) نفسه، ص ١٥٦.

(٣) نفسه، ص ٢٠٧.

في حساباتنا الاجتماعية. أن نترك للمياه أن تأخذهم. معرفة هذا لا يهون علينا التخلي عنهم وعن تعلقنا بهم»^(١).

وتنهي حديثها عن الوقت والنسيان، لتحدثنا عما يبقى بعد مرور وقت طويل على الفقد، بقولها: «الجنون ينحسر، لكن لا صفاء يحل محله»^(٢).

بهذه الشفافية العالية كتبت جوان عن تجربتها في الفقد، وملأت ثغرات لم تتمكن غيرها ممن دوّن مذكراتهم عن فقد أزواجهن من ملتها، لكن خصوصية تجربة جوان تفسر تفاقم ألم الفقدان لديها، فقد فقدت جوان جون في خريف العمر وبعد أن تزوجت ابنتها، ولم تكن جوان محاطة بالأصل بعدد من الأبناء والبنات مما ضاعف تركيزها على ذاتها بعد رحيل جون.

ويبقى أمر آخر وهو أن ألم الفقدان مهما قوي واستشري يظل محكومًا بسؤال المعنى، الذي يتحكم بدوره في تفسير حدة الألم، وقد كانت جوان تفتقد المعنى أيضًا، وهذا ما سيأتي الحديث عنه في آخر صفحات هذا الكتاب.

(١) هام الصيكر السحري، ص ٢٠٧.

(٢) نفسه، ص ٢٠٦.

هدهدات الحب وتهديدات الفقد عبلة الرويني وأمل دنقل

شيء في قلبي يحترق
إذ يمضي الوقت.. فنفتق
ونهد الأيدي
يجمعها حب
وتفرقها.. طرق!

أمل دنقل

رَضِيتُ بالفقر والفوضى وحياة الترحل داخل المدينة وانعدام الاستقرار
معه، فمن شقة مفروشة إلى أخرى، ومن أثاث بالٍ إلى أثاث بالٍ، كما
أخبرتنا فيما كتبه عن حياتهما سوياً.

كانا أشبه بالليل والنهار في اختلافهما وامتزاجهما معاً، ففي طباعهما
حلة وبرود، وودٌ وصدق، وإثارةٌ للمعنى والمجد الشعري على عالم
المظاهر المادية.

عن كتاب (الجنوبي) للكاتبة المصرية عبلة الرويني أتحدث، الصحفية
التي ذهبت لإجراء حوار صحفي مع الشاعر أمل دنقل في صبيحة أحد
الأيام، فلم تجده في المكان الذي يمضي الوقت فيه عادةً لأنه كان من
زوار المساء، فواصلت البحث عنه حتى لقيتُه وحاورته فأحبته وتزوجته
رغم كل الأعذار التي ذكرها لها لينفّرَها من الارتباط به، ولئلا تتحمل
دون سابق ذنب تبعات اختياراته في الحياة، فألقت عبلة بما ذكره لها من

أسباب منقرة وراء ظهرها قائلة: «إننا ستروج ليس فقط انتصارًا للحب، بل انتصارًا لاختياراتك»^(١).

وبعد أن صحبته في حياة الفقر والتنقل المستمر متنازلة عن بيت زوجي يجمعهما معًا، أصيب دنقل بالسرطان في السنة الأولى من زواجهما، وسكنا معهد السرطان لسنة ونصف من تاريخ تلقيه العلاج هناك وحتى موته.

كانا حبيبين وصديقين، لا يكادان يفرقان حتى قالت عبلة: «بدونا صديقين أكثر من زوجين»^(٢)، وعندما صرحت عبلة بعدم استساغتها لمرافقتها في بعض الأماكن كمقهى (ريش) الذي كان يضيح بحديث الأدب والأدباء، أقنعها دنقل بمرافقتها إليه، وتخبرنا عبلة بما دار بينهما حينذاك بقولها: «أقنعني أمل بالتخلي عن منطقي البرجوازي، وتلك الوثنية التي أمارسها تجاه الأماكن، فلا يوجد مكان نحبه وآخر نكرهه، هناك فقط شخص يسعدنا الجلوس معه أو لا يسعدنا. وكانت كلماته منطقية وعادلة، فبدأ (ريش) معه أجمل وأرق الأماكن التي تصلح للقاء عاشقين»^(٣).

ولأن حياتهما لا تدين إلا للشعر ولا تلتزم إلا به، فلم تكن تخضع لنظام صارم، بل كانت حياة ارتجالية فوضوية، أو بوهيمية كما تصنفها عبلة، إذ ليس بعد الشعر غاية عند دنقل، وليس سوى الحب عاية عند عبلة، وفي هذه الأجواء تكونت عاداتهما، فكانا يخرجان للمشى في أي ساعة من ليل أو نهار ويغنيان في طريقهما للحربة. وكأي صديقين كانت

(١) الجنوبي، ص ٥٩.

(٢) نفسه، ص ٦٨.

(٣) نفسه، ص ٥٣.

لهما عاداتهما المشتركة، وكانت القراءة أكثر تلك العادات حضوراً في حياتهما، بل حدث أن حُلّت محل الطعام والشراب في إشارة من عبلة إلى اغتائهما بالكتب عما سواها، وكما كانت عبلة تقسم مع أمل سعادته بميلاد قصيدة، كانت تقاسمه صمته، فقال عنها: «إنها تعرف كيف تصمت معي»^(١)، ولم تكن شريكة الصمت فقط، فللمرح والصخب مكانهما من حياة الزوجين؛ إذ كانا يتشاركان لعب الشطرنج، ويتداولان الفوز ويعلمو احتفال أحدهما بالفوز على الآخر.

وبالمقابل فقد اعترفت عبلة مرة تلو مرة بغضبها المتكرر منه، وشجارهما الذي لا يكاد ينتهي، وتذمرها من كسل دنقل، وعدم اكتراثه لكيان أمرتهما، وما كتبه في إحدى رسائله إليها معترفاً باستمرار حبه لها رغم ثورات غضبها المستمرة: «تغضبين وتغضبين، لكن لا يُهم؛ فقد عودت نفسي على أن أعاملك طقاً لإحساسي وليس طبقاً لانفعالاتك، أحبك، ولا أريد أن أفقدك أينما الفناء البريء التي تكسو وجهها بمسحة الهدوء المنزلي الأليف»^(٢).

لم تضطر عبلة لتجميل علاقتهما بإخفاء منغصات الحياة الزوجية المعتادة، فكشفت عن شخصيتها الغضوب، ولم تكتفٍ بالكشف عن نقائص دنقل ونزعم لنفسها الكمال، بل تناولت هذا وذاك، ورصدت بدقة ذلك التافر في شخصيته، وتلك الشدة والسلطة التي يخفي وراءها طيبة قلبه ومودته، واعتذرت له بأن سلاطة لسانه كانت تنفيا تحطيم الحواجز والمسافات بينه ومن يكتوي بسخريته اللاذعة، كما حين سألها في أول لقاء رآها فيه عن الحبوب المبعثرة في وجهها، معتذرة له بأنه

(١) الجوي، ص ٧٠.

(٢) نفسه، ص ٣٠.

كان يكره الزيف والادعاء ويرى في العيوب جمالها، وكان قد قال لها:
«هل تحجلين من هذه العيوب المنتشرة في وجهك؟ وخجلت بالفعل
وارتبت من السؤال المباغت حتى يادرتني: إني أحب هذه الوجوه»^(١).

كما اعترفت عبلة بمبادرتها بالتصريح له بحبها، وطلبها الزواج منه
لا العكس، فلم تزعم أنه خاض إليها برك الغماد، أو أنه كان يُسرف في
إبداء حبه لها، بل على العكس من ذلك، قالت: «ظلّ دائماً يطالبني بتأكيد
حبي له، دون أن يمنحني هذا التأكيد»^(٢).

وفي كلمات عبلة الكثير من مشاعر الحب والقبول بالمحبيب مع
عدم اليأس من محاولات تقويم مساراته، لكن الازدواجية في الجانب
القيمي عند دنقل، والازدواجية في موقفه المضاد للدين، والتجاذب
الوجداني عنده ما بين الإيمان والتمرد على الفكرة الدينية، وتبني الإطار
الحضاري للإسلام دوناً عن الإطار الفكري، كل تلك أمور تخطتها عبلة
ولم تُثرينها ودنقل ما كانت تثيره بينهما أمور الحياة الأقل أهمية من
اختلافات وشجارات، وهنا يتعظم خطر الحب في أن يصنع من المحب
تابعاً، يذوب في كون محبوبه فيتبنى ويمثل ويتبع مساراته في الحياة
دون مساءلة أو احتجاج.

وكغالب كتابات الزوجات عن الأزواج الراحلين، لم يحضر الفقد
في كلمات عبلة عن دنقل، وإن فرض الموت حضوره على حياتهما،
فلم نحدثنا عبلة ولو لسطور قليلة عن الجروح والتدوب التي خلفها
رحيل دنقل في القلب، وعن أقوله من حياتها، ومعاناة ذلك الأفل.

(١) الجوهري، ص ٨٢.

(٢) نفسه، ص ٣٠.

سرٌ مقدس غادة السمان وبشير الداعوق

الكثبي وساحمي حرفك.

بشير الداعوق

في الكتاب المنشور عقب وفاة الناشر اللبناني بشير الداعوق زوج الكاتبة السورية غادة السمان^(١)، الكتاب الذي وصِفَ بأنه (طفل الجرح الساخن) جرح أسرته وجرح كل أولئك المفكرين والأدباء الذين نشر بشير نصوصهم في مجلة دراسات عربية ودار الطليعة، في هذا الكتاب نشرت غادة ما كتبه عن فقد بشير. واتخذت كتابتها التي استغرقت تسع عشرة صفحة من الكتاب صيغة المقالات المدونة تحت عنوان رئيس، وهناوين فرعية قصيرة.

وقد نشرت غادة تلك المقالات في جريدة الحوادث عام ٢٠٠٧م، وجمعت مقالاتها موضوعات مختلفة كلقائها ببشير، وقصة زواجها منه، وشروط الزواج، واعترافها له بالفضل والحماية والمساندة، ومشاعر الفقد والدموع والاستسلام للموت بوصفه قذراً.

وفي مقالها الأول (على رؤوس أصابع دموعي) كتبت: «يبدو أنني فقدت إلى الأبد لقيي: المرأة التي لا تدع»^(٢)، فقد انهمرت أخيراً دموع المرأة الصلبة لموت زوجها، واعترفت أنها بكّت بشيراً في سطرها الثاني،

(١) بشير الداعوق: كأنه الوداع، قُتِمَ له: غادة السمان.

(٢) نفسه، ص ٩.

إذ قالت «انتحبتُ الليلة طويلاً بدموع بلا صوت، وأنا في المستشفى إلى جانب روجي ورفيق عمري منذ حوالي أربعة عقود: بشير الداعوق، أودعه الوداع الأخير على طول تسع ساعات من محاولات الأطباء إنقاذ حياته من نوبة قلبية»^(١).

وعن يوم وفاته وقلبها المعلق بالجهاز الذي يرصد ضربات قلبه العليل قالت: «كنت أرقب الشاشة المتلغزة وهي ترسم ضربات قلبه التي تخفت شيئاً فشيئاً كما يضمحل الضوء في نافذتي الأخيرة على الفرح، ودموعي تنحدر على وجهي كما يقطر الماء المالح من السقف والجدران في المغاور النائية المظلمة. بكيتُ على رؤوس أصابع دموعي، بلا جَلْبَة، ولكن بحرقَة، بكيتُ بدمع القلب، ودمع العقل»^(٢).

وتحت عنوان (حنوناً كام، سنداً كأب) كتبت بعض أكثر كلماتها تأثيراً في الوجد، فقالت: «لم يتوجع في ساعاته الأخيرة -بعمد الله- كما لو كنت أتوجعُ عنه وعني معاً، وكانت تمطر داخل قلبي. تمطر خلف النافذة. تمطر بين جلدي وعظامي. تمطر داخل دورتي الدموية»^(٣).

وظلت عادة تمسك بيده طيلة تلك الساعات، وهي تمنى لو مررت إليه بعضاً من عمرها، فتقول: «أمسكت بيده طوال ساعات وقناع الأكسجين على وجهه وأنا أحاول أن أنقل له سيالات حبي، وأضحُ فيه بعضاً من عمري الباقي، وأما أعني هول فقدي له. كان حنوناً كام، سنداً كأب، رقيقاً كعاشق دائم، سخياً بقلبه وماله كأمر عربي أسطوري، نبيلاً وشهماً كبطل

(١) بشير الداعوق كأنه الوداع، ص ٩

(٢) نفسه

(٣) نفسه، ص ١٠.

حكاية للأطفال.. وقد فقدته.. حين استرخى قلبه، صمت الأطباء لحضور ملك الموت في الغرفة.. وها أنا مكسورة القلب وبلا أقنعة مثل جرح عارٍ في الريح، أنتحب على كف القارئ»^(١).

وفي مقالة تلت المقالة السابقة تناولت عادة الفكرة التي تطرقت إليها جوان ديديون، وهي الفجوة التي يحدثها الفقد بين ما نعرفه وما نشعر به، فكتبت عادة: «أعرف الكلام العقلاني كله الذي ينبغي أن يقال في لحظات كهذه. أعرف أن نهر الحياة يقود المراكب إلى الأمام ولا يرجع للحلف ولا يبالي بمن يسقط منها في اللجة. أعرف أن الموت يضرب لنا موعدًا غامضًا في لحظة ولادتنا... أعرف أن الموت عدالة فهو لا يستثني أحدًا... ولكن ذلك كله ليس تأمينًا ضد الحزن، ونفسي حزينة حتى الموت»^(٢).

وتحت عنوان (من ثلاثة كتب إلى أربعين كتابًا بفضلته) تحدثت عادة عن عاداتهما المشتركة بعد الزواج، من مثل انكباهما معًا على القراءة والكتابة، وكيف أثر هذا التشارك في زيادة إنتاجها الإبداعي، إذ قالت: «وكان عليّ في السنوات الأولى من زواجنا متابعة حياتي الاجتماعية وحدي، أو البقاء معه في البيت خلف طاولتي مقابل طاولته في غرفة المكتبة. وجريت معه حياة الانكباب على القراءة وتثقيف الذات بعيدًا عن الأضواء.. وفوجئت بأن الأمر لم يضايقني بل انعكس إيجابًا على إنتاجي.. تزوجنا وقد أصدرتُ ثلاثة كتب وأودعته بأربعين كتابًا وثلاثة أخرى جاهزة للنشر، وعشرات الكتب المترجمة إلى أربع عشرة لغة،

(١) بشير الداعوق: كانه الوداع، ص ١٠.

(٢) نفسه، ص ١٦.

ودرزيئة من الكتب التي تدرس أعماله. أي أن حضوره كان نعمة في حياتي الأدبية، وكم تفتقده كتي وبوماتي التي أحبها أيضًا ودللها رغم أنف (التقليديات)»^(١).

أما أطرف عبارة رومانية في الكتاب، فوردت أثناء حديثها عن مقابلتها لوالدة بشير، واستعارتها حقيرة وحذاء من قريبتها هدايا ابنة الشاعر نزار قباني التي اقترحت عليها لباسًا ترتديه لهذه المناسبة، فملايس عادة كانت لا تناسب لقاء سيده أرمستقراطية فقد كان لباسها «(هبي) أو (ميني جوب) على موضة صبايا ذلك الزمان»^(٢)، وعقبت عادة على هذا الموقف بقولها: «بعد الزيارة الناجحة اعترفت لبشير بسرّ الحقيقة الأنينة الكلاسيكية والحذاء، فقال ضاحكًا: كان بوسعك الحضور حافية كسندريلا.. مستزوج على أية حال وكيفما كنت»^(٣).

وبقي أن عادة لم تحذو غيرها من الكاتبات في كتبهن من أزواجهن، فرغم أن زوجها كان أكاديميًا واقتصاديًا، وسياسيًا حزبيًا، وناشرًا ومثقفًا يساريًا، فلم تكتب عنه سيرة، ولا شك أن حياته ضمت أحداثًا كثيرة حرة بأن تُسجل، وأن تُذكر، مثل تلك المحاكمات التي واجهها بشير بسبب كتب كان قد نشرها باعتباره مالكًا لدار الطليعة، ومثل اجتماعات حزب البعث في قصر أسرته، وأحداث أخرى، إضافة إلى أحداث تتصل بعلاقتها معًا، لكن يبدو أن عادة الحريصة على إخفاء كل ما يتعلق بحياتها الخاصة، شجعت على القراء بهذا أو وكلته لغيرها

(١) بشير الداهوق: كأنه الوداع، ص ١٧.

(٢) نفسه، ص ٢٣.

(٣) نفسه.

من زملاء بشير، أو ربما أعدت شيئاً للنشر بعد رحيلها، فقد عوّدت عادة قراءها على تفجير المفاجآت من حين لآخر.

واللافت أن عادة التي نشرت رسائل غسان كفاني إليها دوناً عن رسائلها إليه، ونشرت رسائل أنسي الحاج إليها دون أن تنشر رسائلها إليه، تعاملت مع حياتها الزوجية بسرية فائقة، وكأنها تحميها من النخبة التي تروق لقراء الصحف الصفراء، ويتهاوس بها الفضوليون في المناسبات الاجتماعية، ورغم أنها رثته على طريقة العرب بذكر مآثر بشير، لكنها لم تزدد على ذلك.

وليس لها بعد الرثاء من حديث عما بعد الفقد، عن تأثيره فيها بعد حياة طويلة مع زوجها، حياة حافلة ومكتظة بالأحداث، لقد اكتفت عادة بالحديث عن الجانب الأضيّق وتركّت لغيرها الحديث عن جوانب أخرى من سيرة زوجها، وهكذا تخلّت عادة حتى عن دور الشاهد في كتابتها عن بشير، فعادة التي تعشق الغموض والمفاجآت والتمرد على السائد، لم تسأل صمت المرأة العربية في هذه المنطقة الحساسة، ولم تزدد تلك الكاتبة المتمردة كما تصف نفسها على الوقوف عند دور الرثاء في ساحات العزاء، ثم ولّت متلفعة بصمتها وغموضها دون أن تضيء ما كانت قادرة على الإبحار فيه بقلم مقتدر.

مطرقة النسيان سعاد وعمر أبو ريشة

أنا في الكأس التي أسري بها
أغرق العمر الذي صار سُعادًا

عمر أبو ريشة

صدّرت المؤلفة كتابها^(١) بـ(إهداء إلى روح ملهمي)، أهدت فيه كلماتها إلى زوجها الشاعر الراحل عمر أبو ريشة. وفي كلمات الإهداء ما يُسفر عن روح الكتاب، إذ قالت سُعاد: «إني أجُلُّ قولاً أنت قائله... وأجيز للتكرار أن يتردد. ففي التكرار نفخ يقطع الذكرى. تنثر العزاء على نفس يائسة.. وتبعث الأمل في قلب هذه الألم. إني لقولك أحني الرأس صاغرة، وأسمى لأنفذ ما عاهدتك به»^(٢).

فمشاعر الوجد والفقد المصطبغة بالتعظيم المطلق لعمر، هي روح الكتاب، وأما عهدا الذي عاهدت به سعاد عُمرًا، فقد ذكره الدكتور فوزي عطوي في تقديمه للكتاب، إذ قال: «استوقفتني في الرسالة الشخصية التي شفعت المؤلفة الكريمة بها مخطوطة الكتاب عبارة تقول لي فيها: فأنا يا دكتور فوزي، أسمى إلى إحياء ما هُدا، وإيقاظ ما غفا في أدراج الأمس، وتحت غبار الإهمال، فقد قال لي عمر يومًا: يا سعاد، لا

(١) أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر.

(٢) نفسه، ص ٥.

تحطمني بمطرقة النسيان؛ وقد عاهدته أن تكون ذكراه محور الأيام التي بقيت لي على هذا الكوكب، ولهذا أرفع راية الوفاء»^(١).

وقد لاحظ الدكتور فوزي سمة التقديس في كتابة سعاد، وعلق عليه بقوله: إن «المؤلفة تكن للشاعر أصفى مشاعر الود والتقديس»^(٢).

وهذا أيضًا ما لاحظته ودوّنته الشاعرة إنصاف الأعور في تقديمها الذي تلا تقديم الدكتور فوزي، إذ قالت: «وبقدسية عجيبة تحدث عنه وكأنه إله، كأنه قديس، لهذا ثارت على الكتمان، حيث أذهلها غياب عمر.. فقدان عمر.. عمر الذي شغلها.. وأشغلها.. وأنهضها وجعلها تولد من جديد، وكأنه يريد بها استمرارًا له، فقد كان يأمرها وهو الضليغ في معرفة الأمر، كان يأمرها فيقول في إحدى القصائد:

كوني كما أريدك أن تكوني

إعصار ثورتي وعصف جنوني

كوني.. كوني

لكنك أبدعتك لو لم تكوني»^(٣).

لقد احتمت سعاد في مذكراتها بمقدمات أصدقائهما، وكأنها تنفّس المواجهة المباشرة مع القارئ، وقد وُفّت في مذكراتها هذه، والكتاب الذي أصدرته بعدها عن عمر بوعدا له ألا تحطمه بمطرقة النسيان.

ومذكرات سعاد عن عمر ليست مرتبة على الأحداث، والتسلسل

(١) أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر، ص ٧.

(٢) نفسه، ص ٧.

(٣) نفسه، ص ١٦.

الزماني، فقد قامت على استدعاء ما جادت به الذاكرة الواعية (التي تمرّدت على رياح السلوان) بحسب قولها.

والحضور الوجداني في مذكراتها قويّ جدًّا، وهو ما حرصت عليه الكاتبة بصورة طغت على حرصها على حفظ مسيرة الشاعر بصورة موضوعية صرفة كما صنعت بوران زوجة علي شريعتي في كتابها عنه، ولعل في عنوان الكتاب (أبكي على زمن خلا من شاعر مثل عمر) ما يشفع لطفيان الجانب الوجداني لديها.

وقد بلغ من تقديس سعاد لأبي ريشة أنها صرّحت في غير موضع من كتابها أن لو كان لها أن تعبده لعبته، وقد خلعت عليه من صفات الألوهية ما خلعت، ولم تستقد له رأيًا ولا موقفًا، بل كان محققًا على الدوام، ويصر ما لا تبصره، والطريف أنها ذكرت أنها كانت تمنعه من الذهاب إلى الحلاق لحلاقة شعره، فقد كانت تتولى هذا بنفسها، وقد جمعت فضلات شعره طيلة خمس عشرة سنة هي عمر زواجهما.

ويبدو لي أن سعاد رضيت من علاقتها بعمر بمنزلة الملهمة المعشوقة المفتاح، ولم يعد يهمها بعد ذلك شيء؛ فرغم حب عمر الكبير لها فلم يكن يتردد في وصفها بالقاصر، ونعتها بالغبية في أكثر من موضع، ولم يكن يراها رغم كبر سنّها - إذ تزوجها في ستينيه وهي في أربعينها - على دراية بالمشاعر، ولا فهم للناس، ولا الحياة... وهي لا تذكر هذه النعوت بصيغة استياء ولا نقد، ولا أرى في مذهبها هذا إلا استمرارًا للتسفيه، إذ الحب والاحترام قرينان لا يفترقان.

ولم يكن ما ذكرته سعاد من هذا مجرد استثناءات عابرة، ضخمتها العين الناقدة، ففي كتاب سعاد تكرارًا لأمر عمر لها ألا تقاطعه أثناء كلامه

بأسئلتها «السخيفة»، وتوبيخها كلما قاطعت، فله الحديث، ولها الإصغاء لا غير، على أن الحب لا يقتضي إلغاء شخصية طرف لصالح طرف، ولا تنزيهه مطلقاً من العيوب، لكن من اعتاد أن يكون ظلاً وحسب، لن يخرج عن طبيعة الظل، إذ يشكل بشكل صاحبه، ويتحرك حيث يتحرك، ويزول بزواله.. فلا قيعة معنوية للظل، وهكذا هي كل علاقة تبدأ وتنتهي بطرف واحد.

وهكذا كانت مذكرات زوجة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، إذ تنتمي لهذا الصنف من الشخصيات الظلال كما أسميها.

البحث عن حياة هنرييت عبودي وجورج طرايشي

هل ستأتي أخيراً اللحظة التي
لن أفارقك فيها أبداً؟

جورج طرايشي

أهدت هنرييت كتابها^(١) إلى بناتها الثلاث من جورج: مايا وريما وياره. وقدم له الناشر السعودي ذاكراً أن الكتاب عبارة عن محاولة لكتابة سيرة جورج من خلال أيام الزوجة المفكرة معه، وأن تأليفه نابع من الحرص على معرفة ما لا يُعرف عن حياة الزوج -الذي لقبه الناشر بالشيخ- وما يتعلق به: «تقلباته الفكرية، المنفى والوطن، الأصدقاء والأعداء. عن تفاصيل شغفه، البحث والكتابة»^(٢).

وقد مثلت علاقة جورج وهنرييت علاقة زوجين مثقفين كغادة وبشير، لكن هنرييت كانت أكثر سحاة من غادة في الحديث عن حياتهما الخاصة، كحديثها عن رسائل فترة الخطبة التي استمرت خمس سنوات، واحتفظ بها الزوجان في حقيبة بقيت مغلقة لخمسين سنة هي عمر زواجهما؛ إذ لم تفتح هنرييت حقيبة الرسائل إلا بعد رحيل جورج.

(١) اللحظة الآنفة: أيامي مع جورج طرايشي، تأليف: هنرييت عبودي، قدم له تركي الدحيل، الناشر: دار مدارك للنشر ٢٠٢٠م والكتاب يضم بالإضافة إلى مقدمة الناشر وما كتبه هنرييت عن جورج، حولاً أجراه الدحيل معها عام ٢٠١٦م، كما يضم مقالة أخرى كتبها صديق جورج محمد عبد المطلب الهوي

(٢) نفسه، ص ٢٠.

ومما ذكرته هنرييت أيضًا من أمور خفيت عن قراء جورج وتشي بالقرب الشديد بينهما حديثها عن استياء جورج من اسمه، وعادة جورج في تفتيت الخبز على المائدة، وتحليله لهذا العادة بتمزيق الأب، بعد قراءة جورج لأعمال فرويد في التحليل النفسي وترجمته لها، وكانت علاقة جورج ووالده قد مرّت بمرحلة عسيرة في فترة من الفترات، ولم يتمكن جورج من فهم تصرفاته المتأثرة بعلاقته بوالده إلا على ضوء التحليل الفرويدي، ومما ذكرته عن جورج مما يندرج في هامش الأحداث اليومية، حديثها عن المتسول الذي كان يَخُصُّه جورج كل يوم بسيجارة رغم إقلاعه عن التدخين منذ بداية السبعينات لإصابته بذبحة صدرية.

وقد بلغت علاقة جورج وهنرييت من العمر ما يكفي لإزالة حاجز الأسرار بينهما، بل لم تعد بحاجة لمعرفة ما أصبح بوسعها معرفته من دوافع تصرفاته أو تفسيرها نتيجة عثرتها الطويلة معه.

وكانت هنرييت صريحة إلى الحد الذي اعترفت فيه بتعاملها على جورج قبل لقائه عندما جيء لها بقصته الفائزة في مسابقة القصة القصيرة مطلع شبابه فأوسعتها نقدًا لاذعًا، ثم ذكرت أنها عادت إليها بعد حين، فوجدتها قصة إنسانية لا مُفرقة في الميلودراما كما وصفتها سابقًا، وفُسرَت هنرييت نقلها الأول بقولها: «كأنَّ نجومية هذا الشاب قد نالت من مكائني داخل دائرة أصدقاءنا المشتركين»^(١).

كما تحدثت عن لقائها الأول بجورج حين زارها بصحبة صديق، واستقبلتهما في غرفة مزودة بمكتبة وراّت هنرييت جورج يدق في عناوين الكتب فقالت له: «إن كنت تبحث عن رائعة أدبية فإني أنصحك

(١) الملحظة الآتية، ص ٣٨.

بمطالعة هذا المؤلف»^(١)، وأعطته كتاب سيمون دي بوفوار (المثقفون) من على الرف، وطلب استعارته فأعارته له قائلة: «شرط ألا تعيده لي ممزقاً»^(٢). وكان هذا الكتاب الذي أعاده بعد أسبوع ووعدها بترجمته، وأنجز وعده، هو فاتحة العلاقة بينهما.

والطريف أن الحدث الذي أوقعها في حبه هو أنه كان يملك كنزة بيتمة (خضراء اللون بخطوط بنية) يرتديها تحت البدلة رغم عدم ملاءمتها للبدلة أبدًا، وكان يتحایل لإخفائها، كما كان قد صارع هنرييت وقتها أنه سيشتري كنزة جديدة إذا تقاضى راتبه الشهري، لكن ما حدث بعد أسبوع، حين استلم جورج الراتب هو أنهما كانا قد تحدثتا عن رواية (الممسوسون) لدوستيوفسكي فما كان من جورج إلا أن اشترى كل مؤلفاته بالفرنسية مؤجلًا شراء الكنزة إلى وقت آخر.

وتعلّق هنرييت على هذا الموقف فتقول: «والواقع أن الكتب والحديث عن أفكارها والسجلات حول رؤاها كانت منذ البداية زاد علاقتنا اليومي. فقد كنا نذرع طرقات حلب ذهابًا وإيابًا ونحن نتحدث عن آخر بطل روائي نعرفنا عليه، أو عن أحدث بحث أو عمل فلسفي أو نقدي أتيتحت لنا فرصة مطالعته، وكان يحصل أن نصطدم، غير أننا كنا نتفق في معظم الأحيان»^(٣).

ومع التحول الذي اعترى جورج من قارئ إلى مفكر ومترجم وناقد وباحث، أخذت علاقتهما طابعًا جديدًا لم يخلُ من الغرابة والطرافة كما وصفته هنرييت، وأطلقت عليه اسم (الدخيل) أو (الطرف الثالث) قائلة:

(١) اللحظة الآتية، ص ٣٩.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ٤٦.

«كان يحلو لي أن أمازحه قائلة: لقد أصبحت علاقتنا ثلاثية، فهناك على الدوام من يحشر نفسه بيننا، وكان هذا الدخيل إما فرويد، أو هربرت ماركوز، أو عبد الرحمن منيف، أو محمد عابد الجابري، أو سواهم من المبدعين»^(١).

وقالت في موضع آخر عن ذلك الدخيل: «وكانت إقامة (الدخيل) في علاقتنا الزوجية تطول أو تقصر بحسب الظروف، فلأسباب تعذر علي إدراكها كانت هيمنة الطاغية تنحسر على حين غرة فتقلب صفحته، كيما نباشر عهدنا مع (صيف) جديد»^(٢).

أما أطول إقامة سجّلها الدخيل في حياتهما الزوجية فقد كانت إقامة المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي لم يفارقهما طيلة عشرين عامًا أو أكثر، واحتلّ منزلها ماديًا ومعنويًا على حدّ وصفها.

وكان جورج لعدم معرفته التعامل مع الكمبيوتر قد طبع مئات الأوراق وربّها بطريقة معينة، ومنع أسرته من مشها أو محاولة ترتيبها لكلا تختلط عليه.

ولما كانت العادات المشتركة بين الزوجين تفرض حضورها في حياتهما، فقد كان الإثراء والمعاونة وشد الأزر كذلك يفرضون حضورهم في تلك العلاقة، ومن المواقف اللطيفة التي ذكرتها هنرييت وتوضح هذه الفكرة، أنها احتاجت لتعلم قواعد اللغة العربية وإجراء امتحان لتعديل شهادتها، فعلمها جورج أصول الإعراب، وتصريف الأفعال، وتقطيع الأبيات الشعرية، ودراسة النص الأدبي، وغيرها في أربعة أيام

(١) الملحظة الآتية، ص ٤٧

(٢) نفسه، ص ٤٨

وفي الاقتباس الآتي تكشف هنرييت أثناء حديثها عن هذه التجربة سمة في علاقتهما وهي التحدي والانتقاد، فبعدما نجحت في امتحان اللغة العربية وحصلت على درجة جيدة كان جورج: «يتباهى أمام أصدقائنا قائلاً: «(عَلِمْتُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، مَا يُعَلِّمُهُ سِوَايَ عَلَى مَدَى سَنَةٍ)، وَكُنْتُ أَحِبُّهُ: (الْفَضْلَ لِلتَّلْمِيزَةِ، لَا لِلْمُعَلِّمِ فَحَسْبُ)». ولم تكن هذه العبارة مجرد مداعبة فقد اتسمت علاقتهما منذ عهدهما الأول بقدر من التحدي المتبادل، ولم يُخل إعجابي الشديد به دون معارضته، بل انتقاده. كنت أرفض المصادقة على بعض آرائه ومواقفه بحجة أنني أحبه، ولطالما اختلفنا بصدد ما كان يصمه بتزعتي الفردية المقدمة»^(١).

ومما ذكرته من أحداث حياتهما معاً وتتجسد فيه الفكرة السابقة عن خوض الحياة معاً متعاضدين متساندين، أنه لم يكن لديهما بيت أول زواجهما وكانا يقيمان في فندق حتى امتلكا بيتاً، وكان شبه خال من الأثاث، إذ كان يشمل غرفة نوم وستة كراسي خيزران أُهْدِيَتْ إليهما. وحدث أن هاتَّفها جورج ذلك الوقت في عملها وأخبرها أنه دعا ثلاثة من أصدقائه لتناول الغداء في المنزل - أحدهما شَغِلَ فيما بعد منصب وزير الداخلية في العراق - وذكّرت هنرييت كيف دبّرت وقتها طاولة طعام للمضيوف بالاستفادة من القطع المتاحة لديهما آنذاك؛ إذ قَلَبَتْ صندوق الكتب، ووضعت عليه مفرشاً مزخرفاً.

ولم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي يضطر فيها الزوجان لعيش تجربة البيت شبه الخالي من الأثاث، بل عاشاها مرتين أخريين، إحداهما في بيروت حينما قرر جورج مغادرة سوريا خوفاً من إطاحة البعض به،

(١) اللحظة الآتية، ص ٥١.

ووجد في دعوة بشير الداعوق له من أجل العمل في لبنان مخرجًا مما هو فيه، فادعى أنه سيذهب إلى بيروت للإعداد للدكتوراه في الأدب العربي، وبهذا حصل على إذن بمغادرة البلاد وقد اضطروهم هذا الانتقال المفاجئ إلى التفريط بمعظم أثاث بيتهم؛ فقد كان نقل الأثاث يتطلب ترخيصًا قد يشير طلبه شكوك المباحث آنذاك، وفي هذا تقول هنرييت: «كنا قد أثنا بيتنا تدريجيًا، وكانت لكل قطعة منه قصة، فسجادة غرفة الجلوس كنا قد اشتريناها من التعويض الذي تقاضاه جورج لقاء ترجمة كتاب هربرت ماركوز (الإنسان أحادي البعد)، أما غرفة الطعام ذات المقاعد الجلدية الحمراء فكانت ثمرة عام من البرامج الثقافية الأسبوعية قدمتها في إذاعة حلب، في حين يدين مكتب جورج بوجوده إلى كتابه (الدولة القطرية)، وهكذا دواليك.. لم نحمل معنا إلى بيروت سوى مكتبتنا التي جرى تحميلها على ظهر سيارة بوشطة، واللوحات المهداة -إلينا- وهكذا حططنا للمرة الثانية في دار خلّت من كل أثاث، ولكن مع طفلتين هذه المرة»^(١).

ثم تكررت التجربة للمرة الثالثة وكانت عند رحيلهم إلى باريس؛ عندما اندلعت الحرب الأهلية في لبنان وياتت الأوغصاع في بيروت غير مريحة، ولأسباب أخرى قاهرة تدهورت معها أوضاعهم المادية. وكان جورج قد تلقى دعوة للعمل في مجلة (الوحدة الشهرية) هناك فاغتنم الفرصة، وهاجر وأسرتَه إلى فرنسا، وتصف هنرييت الأمر قائلة: «وللمرة الثالثة واجهنا مشكلة الدار الخالية من كل أثاث، فقد رحلنا إلى باريس محمّلين بحقائب ملابسنا فحسب، ولم ننقل معنا هذه المرة مكتبتنا! أجل فقد كنا مضطرين إلى التخلي عن أغلى كثر نملكه، عن أعمال مهداة

(١) اللحظة الآتية، ص ١٢٥.

من قبل مؤلفيها، وعن مجموعات ثمينة من الروايات العالمية، وعن معاجم وموسوعات مكثنا على مدى شهور نسدد ثمنها، عن مسرحيات وأبحاث ودراسات أمضينا سهرات طويلة ونحن نتناقش حولها^(١).

أما مصير الكتب العزيزة على كليهما فقد كان مأساوياً، كما قالت هنرييت: «لقد تخلينا عن موضوع حبنا المشترك (الكتاب) فبادرنا إلى توزيع ما كنا اكتنزناه عاماً بعد عام، والأسوأ من ذلك أننا أحلنا إلى صناديق القمامة مجموعات كاملة من الأعمال الفكرية اليسارية التوجه. وقد أقسمتُ يومها ألا أشتري كتاباً ما دمت على قيد الحياة. وقد احترمت هذا القسم، فأنا أتردد على المكتبات العامة لاستعارة الكتب التي أُرغب في مطالعتها - أما جورج - فكتاب واحد حملة معه جورج عندما غادرنا لبنان في صيف ١٩٨٤ م، هو (نقد العقل العربي) للمفكر محمد عابد الجابري^(٢)».

ولم تخل كتابة هنرييت من النقاط الفكرية المشتركة بينها وجورج، ومن ذلك حديثها عن نسويتها ونسوية جورج حينما نشرت هنرييت مقالاً قالت فيه إن دخول المرأة لميدان العمل وقيامها بمهام كانت تقليدياً حكراً على الرجل، يُحتم على الرجل القيام بمهام مازالت تقليدياً حكراً على المرأة، مثل العناية بالطفل والبيت ونظافتهما أثناء غياب المرأة. فلاقى المقالة عتاباً باعتبارها تؤثر على سمعة جورج، وردّت هنرييت على من عاتبها بأن جورج يجاهر بمواقفه النسوية، وهو مثلها من أنصار سيمون دي بوفوار. أما جورج كما قالت هنرييت فقد ترجم مواقفه

(١) اللحظة الآتية، ص ١٣٦.

(٢) نفسه، ص ١٣٦-١٣٧.

النسوية بتغييره لابتته الرضعية في حضور ضيوفه رغم أنها لم تبتك، ولكن «ساعة الغيار قد أرفت»^(١).

وقد انتبه جورج للفارق بينه وهنرييت، فقد كان جورج يتبرم من اسمه لكشفه عن انتمائه الديني، في حين أن هنرييت لا تفعل، وقد صارحها بهذا، وذكرته هنرييت في الكتاب قائلة: «وقد أدهشني ذات يوم وبعد أعوام مديدة قد انقضت على زواجنا عندما صارحني قائلاً: (أنت جذورك مفروزة في الأرض، وهذا ما يجعلها راسخة ثابتة، أما أنا فأسعى إلى إرساء جذوري في مبدأ، في أيديولوجيا، في عقيدة، أي في أرضية قابلة للتحويل، لذلك ترينني دائماً أعاني من القلق)»^(٢).

وتفشي حواراتهما العاطفية التي دوّنت هنرييت بعضها في الكتاب مشاعرهما تجاه جورج، كحديثها عن إصابة جورج بالذبحة الصدرية في الثلاثين من عمره، وإجرائه عملية جراحية عند إقامتهم في بيروت، وخضوع جورج وقتها لحمية غذائية، وفي هذا تقول هنرييت: «لقد أخضع جورج لحمية صارمة فتوجب عليّ أن أؤمن له باستمرار وجبات طعام تتناسب مع هذه الحمية، وذات يوم شتوي ممطر عدتُ فيه إلى البيت مبللة الشعر والثياب، ومحمّلة بالأكياس، قال لي جورج وهو يتشم بحزن: (ألا رليتِ تشعرين بنفسك في موسكو؟) فأجبتُه على الفور: (أجل، طالما نحن معاً)»^(٣).

(١) الملحظة الآتية، ص ٧٦

(٢) نفسه، ص ١٠٥.

(٣) نفسه، ص ١٢٦-١٢٧

ومن لحظاتهم المشتركة الأخرى لحظات اللعب سويًا، فقد كانا يلعبان الورق يوميًا، فكانا يلعبان ويتخاصمان أحيانًا فيتوقعان عن اللعب لمدة أسبوع، ثم يعودان لسابق عهدهما ويعاودان الخصام فالرجوع للعب وهكذا.

ومن تقلبات هذه الحياة التي خاضا أمواجه العاتية معًا إلى السكون الأخير، إلى مشاعر الفقد، وانحسار كل شيء، أخذت هنرييت تتحدث مبدية ما كان يعتر بها من أفكار غريبة بعد وفاة جورج، فذكرت كيف تأثرت بفقده إلى مدى دفعها إلى البحث في جيوب بدلاته الرسمية عما قد يشير لوجود علاقة نسائية أخرى قبل وفاته، فرغم اعترافها أنه كان: «مؤمنًا بالحب، مؤمنًا بالإخلاص في الحب»^(١)، قالت هنرييت: «هو كذلك بالفعل، إذ بعد رحيله قمنا بالبحث في بدلاته الرسمية، وملابسه، كي نفرغها من الأوراق التي قد توجد بداخل جيوبها، وفي داخلي كنت أبحث عن رسالة قد تكشف علاقته بامرأة أخرى، لعلني أخفف من وطأة ألمي، لكنني أضحك الآن على الطريقة التي كنت أفكر بها»^(٢).

وبعد أن كانت عاداتهما المشتركة مصدر سعادة لهما، باتت تلك العادات مصدر ألم لها، فبعد الأيام الأولى من رحيله قالت: «شعرت بغبن، مسكنتي وغادرتني، هو مسكين توفي ولكنه ترك فراغًا كبيرًا في داخلي، ويمكن لك أن تتخيل أنه مرّ على رحيله أربعة أعوام، ولكنني لا أستطيع أن أستمع إلى الموسيقى، ولا أن أسمع إلى أم كلثوم أو

(١) اللحظة الأنثى، ص ١٦٠.

(٢) نفسه، ص ١٦١.

عبد الوهاب، لأننا كنا نخرج بالسيارة يوميًا ونستمع لهذه الأعاني، أما الآن فلستُ قادرة حتى أن أستمع للموسيقى الكلاسيكية التي اعتدنا سماعها سويًا، لذلك عندما حُرمت ذلك الحب شعرتُ بألم كبير، وهذا دليلٌ على أنه كان حُبًا مطلقًا بالفعل»^(١).

وختمت هنرييت كلماتها عن جورج بقولها: «في إحدى رسائلك كتبتَ تقول: (هل ستأتي أخيرًا اللحظة التي لن أفارقك فيها أبدًا؟) وها أنا أردد اليوم مع بداية كل نهار جديد: (متى ستأتي اللحظة التي لن أفارقك فيها أبدًا؟) فالحياة من بعدك قد فقدت مذاقها، وإن كان لي من مأخذٍ عليك، فكونك قد غمرتني بحبٍ يستحيل العيش في غيابه»^(٢).

مثلت كتابة هنرييت عن جورج بالنسبة إلي نموذجًا متميزًا، فقد استطاعت أن تنهض بالموضوع الذي لأجله كان الكتاب بوعي، وأن تلامس حياتهما المشتركة، بحلوها ومرّها، دون الوقوع في سرد ذاتي عن سيرتها الشخصية من خلال زوجها، بل أرّتنا كيف، وأين، كانت تقع أعمال جورج ضمن أدواره الأخرى، باعتباره الزوج والأب المسؤول عن إعالة أسرته، وكيف ساهمت تلك الأعمال الفكرية والمترجمة في تشكيل حياتهما، في حين ينظر إليها القراء بصفة مجردة عن الظروف التي حُفّت بإنتاجها والعوائد والآثار الناتجة عنها.

وقد لامست هنرييت في سردها عما بعد الفقد ما يحدثه ألم العادات المشتركة في النفس من شروخ عميقة، كما أفصححت عن تلك المشاعر التي تحمل المكلوم على التفكير بطريقة تجافي المنطق أحيانًا، وإن لم تُطل هنرييت في هذا.

(١) اللحظة الآتية، ص ١٦٢.

(٢) ص ١٥٥.

اليَدُ الفارغة سوزان وطه حسين

أنتِ ضيالي حاضرة أم غائبة -

طه حسين

كتبت سوزان طه حسين عن أيامها مع زوجها الأديب العربي طه حسين وهي في الثمانين من عمرها^(١)، وانهمرت ذكرياتها بغزارة مؤثرة، رغم الفوضى التي اتسمت بها كتابتها الأشبه باليوميات والذكريات المبعثرة، كحبات العقد المتناثرة بعد أن فقدت خيطها الناظم.

وقد ضمّ كتابها (معك) ذكرياتها مع طه، ورسائل تبادلها معاً في أوقات مختلفة، وأحداث وصراعات ورحلات ثقافية وأدبية وسياسية، واختلط حديثها عنه بحديثها عن أبنائهما وأصدقائهما وخذمهما أيضاً.

كتبت سوزان وحضور الأسرة يملأ كيائها وكتابها معاً، وجسدت كتابتها المرأة العصامية التي كانت، الزوجة والأم وربة البيت، وسيدة المجتمع، والشخصية الثابتة على التزامها بخياراتها في الحياة لا بحبها لزوجها فحسب، منذ التقائها به طالباً في باريس وحتى آخر لحظة من لحظات حياته.

وقد أدركت سوزان أن غاياتها وطه من هذه الحياة لا تتصل بالسعادة

(١) معك، ترجمة: بدر الدين المروكي، مراجعة أمين محمود العالم.

بل بقيمة ما يبذل الإنسان له عمره، فتنقل في أوائل الصفحات قول طه الذي آمنت به وعاشت وفقاً له: «إننا لا نحيا لنكون سعداء، ولا حتى لجعل الآخرين سعداء»^(١). وتعلق: «عندما يكون شأن المرء شأن طه فإنه لا يعيش ليكون سعيداً وإنما لأداء ما طلب منه»، وتضيف: «كنت تعرف أنه لا وجود لهذه السعادة على الأرض»^(٢).

كما أدركت سوزان أن ما تقدمه لطفه كان يزيد عن الحب برسالية فائقة، وهذا ما بقي في ذهنها من كلمات أثبتها عن صديقة قالت لها أن عليها أن تضطلع بتأدية هذه الرسالة. ولا تمثل هذه الغيرية المضادة للأنانية عند سوزان في قيامها بما وهبت له نفسها فحسب، بل حتى في صياغة عنوان كتابها كما لاحظ من كتب تذيلاً للكتاب، فقد كانت طيلة حياتها مع طه ترفض الحديث عن نفسها في اللقاءات والمقابلات الصحفية، قائلة: «حينما نملك سعادة أن نعيش في ظل رجل عظيم أرى أن علينا أن نتضاءل كثيراً وأن نساعدته بقدر ما تيسر لنا إمكانياتنا»^(٣).

ورغم كل ما بذلته من جهد عند كتابتها عن طه في ثمانينها، فقد اعتذرت عما لم تذكره من أيامها معه بقولها: «قلنا لبعضنا كل ما لا نستطيع حصره بكلمات، ليغفر لي حبيبي هذه الصورة الباهتة»^(٤).

وعن التقاء قلبيهما عام ١٩١٥م واتخاذها قرار الموافقة على الزواج من طه بعد أن أفضى إليها بحبه، وبعد ما كان من معارضة أسرتها في البداية لزوجها بمسلم وأعمى، كتبت: «ربما كان الأمر جنوناً لكني

(١) معلق، ص ٢٥.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه، ص ٢٤١.

(٤) نفسه، ص ٤٢.

اختبرت حياة رائعة^(١)، قالت رغم ما جابهها معاً من معن أدركت سوزان منذ اللحظة الأولى أنها تندرج في التزامها تجاه هذا الحب، وكما قالت: «تعلمت أن آخذ نصيبي من كل المعين التي اختصت بها حياة الرجل الذي أحب^(٢)».

كانت سوزان لطف اليد التي تسند، والقلب الذي يضخه، والعين التي يبصر بها طريقه في الحياة، والحسن الذي يتذوق من خلاله الجمال والفن لا اللغة وحدها. وقد عبّر طه عن هذا أبلغ تعبير في رسالة نشرتها في الكتاب يخاطب فيها سوزان فيقول: «أنت ضيائي حاضرة أم غائبة»^(٣). وكان طه يسميها أستاذته، كما في قوله: «كنت صديقتي، أستاذتي، فأنا مدينٌ لها أن تعلمت الفرنسية، وأن عمقت معرفتي بالأدب الفرنسي، وأنا مدين لها أن تعلمت اللاتينية، ونجحت في نيل درجة إجازة الآداب، وأنا مدين لها أخيراً أن تعلمت اليونانية واستطعت أن أقرأ أفلاطون في نصوصه الأساسية»^(٤).

وعن الارتباط الشعوري الوثيق بينهما كتبت: «لسنا معتادين أن يتألم الواحد منا بمعزل عن الآخر»^(٥)، وهنا تنثر سوزان كلمات عن الحب والغياب فتقول: «أولئك الذين يتحاربون حقاً يعرفون أن الحب حاجة إلى حضور مستمر، حتى وإن لم يكن هذا الحضور حضوراً مادياً»^(٦).

(١) معك، ص ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٢٤.

(٣) نفسه، ص ٤٦، ٤٨.

(٤) نفسه، ص ٢٥٤.

(٥) نفسه، ص ٢٧.

(٦) نفسه، ص ٥١.

ويتدفق في حديث الرسائل التي كتبها طه لها عند سفرها، ذلك الالتصاق الحسي والمعنوي بين الزوجين، فلم تكن سوزان لصيقة اليَد التي طالما ضمَّتها إلى ذراعها، بل لصيقة الروح والفكر، وربما أكثر، وأكبر، كما في قوله لها: «لعل ما يتتا يفوق الحب»^(١)، وقوله: «بدونك أنا أعمى حقاً»^(٢)، و«ما أغرب الأمر كنت أظنني سأتسلى في غيابك بإنتاج غرير ولكني لا أنتج شيئاً»^(٣). وقوله: «اعذري أفكاري فأنا لا أفكر، وإنما أحب، ما أصعب قول ذلك! لن يعرف الإنسان نفسه على الإطلاق وسيبقى دوماً في أنفسنا شيء ما، نستشعره دون أن نفهمه مطلقاً»^(٤). أما آخر رسائله إليها في غيابها الذي استمر لثلاثة أشهر، فقد كانت: «أحبك وانتظرك ولا أحيا إلا على هذا الانتظار»^(٥).

كان طه الذي امتلك ناصية البيان ينظر إلى علاقتهما نظرة فلسفية، تغدو فيها النفسان نفساً واحدة، وصرُح لها ذات مرة أنه معها ليس كما هو مع الآخرين، فكتب: «كان أفلاطون يفكر أننا إذ نتحاب، فإننا لا نفعل سوى أن نُعيد صنع ما أفسده عارض ما. عندما تنفصل نفسان عن بعضيهما، تبحث كل منهما عن الأخرى، وعندما يوجدان ويتعارفان، فإنهما لا يعودان كائنين وإنما كائناً واحداً. إنني أؤمن بذلك تماماً... أنعلمين أنني أصعب صوفياً لو كنتُ شاعراً لألقت الأناشيد، ولغنيتها ونفسي ترقُّ وقلبي يلين، إنني لم أعد أتعرف على نفسي مطلقاً.. فلدي شخصيتان:

(١) محك، ص ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٨٧.

(٣) نفسه، ص ٤٨.

(٤) نفسه، ص ٥٠.

(٥) نفسه، ص ٦٤.

واحدة للعالم كله، وأخرى لك، لي، لنا، وفكرتك وحدها هي التي تجعلها تعيش.. ولكن أترين يا سوزان؟ أنا لا أتحدث إلا عنّي، إنني أنا أني.. وكل الصوفيون أنايون»^(١).

ويقي طه يكتب لها حتى مثيّه الأخيرة، فعندما لم تستطع السفر معه إلى جدة ورافقه أمين الخولي وسهر على راحته عوضاً عنها كانت المرة الأخيرة التي كتب لها طه فيها قائلاً: «تعالى إلى ذراعي وضّعي رأسك على كتفي ودعي قلبك يصغي إلى قلبي»^(٢). وكان عمره آنذاك خمسة وستون عاماً.

هذه الرسائل هي ما بقيت تؤنس سوزان بعد رحيله، وكانت أحياناً تذهب بها إلى بيت ابنتها أمينة، كما في قولها: «حملت إلى ابنتي في المعادي رسائلك التي كنت أود أن أقرأها بهدوء»^(٣).

وعند قراءتها كانت سوزان تستحضر الطريقة التي كانت تكتبُ بها تلك الرسائل، إذ كان طه يملئها على غيره إملاءً، فتتوجع قائلة: «عندما أقرأ رسائله متخيلةً الجهد الرهيب لإملائها تنهالُ دموعي»^(٤).

وأبانت سوزان التي سبق وأن ذكرت أنها كتبت عن هذه الرسائل في الثمانين من عمرها، عن شعورها وهي تقرأ رسائله في هذه السن فتقول: «لم تكن من بين هذه الرسائل التسعين رسالة واحدة لم تكن اعترافاً أو عطاءً. أقرأها وأقرأ تلك التي وصلتني منه بعد ذلك. خمسون عاماً مضت

(١) معك، ص ٥٢.

(٢) نفسه، ص ١٦٥.

(٣) نفسه، ص ٣٨.

(٤) نفسه، ص ٤٩.

ولا أكاد أصدق ذلك إلا بصعوبة، أمِن الممكن يا طه، أنني كنت محبوبة على هذا النحو وأنني كنتُ المقصودة بهذا السيل من الحنان والعاطفة؟!... ليس عمري ثمانين عامًا. وعندما أغلقُ لفة الرسائل التي ربما تناولتها غداً من جديد، أشعر أنني نشوى، خارج الزمن الحاضر، وخارج العالم. هذا القدر من الحب الذي كان عليّ أن أحمله وحدي، عبثًا رائعًا، ما أكثر ما خفتُ ألا أتمكن من القيام بمتطلباته بجدارة^(١).

واشتكت من أنهما لم يملكا قط حياتهما الخاصة، فقد كان يملئ رسائله إليها في غيابها وحوله أصدقاء متطفلون.

وكانت سوزان تعرف أن طه لم يكن هادئ الطبع دومًا، وأنه كان غضوبًا وكانت تعلم الأمداء التي يمكن أن يصل إليها عنف أقواله عندما يغضب، وفي كلمات عذبة رؤوم كتبت عنه: «كنتُ أعرف احتدام غضبه وعنفي أقواله، وأحاول أن أخفف قليلًا من حدتها؛ فيبدو مفعمًا بالإرادة الطيبة- فيجيب-: (سأطيعك، وسأكون نزيهاً في مقالاتي، ولن أسبب لك العذاب يا ملاكي، اطمئني، وما دمتُ إلى جانبي، فلن أغدو شريكاً، لكنني سأغدو مجادلاً حقيقاً في المساجلات)»^(٢).

وعن الوحدة المريعة التي كانت تتملكه في غيابها كتبت سوزان: «تجراً أخيراً أن يقول: (أما قليل الإفضاء بمشاعري، بل إنني صموت، وإنني على وعي بذلك تمامًا، لكن ما أكثر ما حدثتك منذ رحيلك عن أشياء لا تطيقين سماعها! لم أكن أعتقد على الإطلاق بقدرتي على مثل هذا الحب. وسبقني دومًا في أعماق نفوسنا زاوية كانت وسبقني دومًا

(١) معك، ص ٤٩.

(٢) به، ص ٥٤.

وحشية، ولن يمكن تقاسمها إلا بين كائنين، كائين فقط، أو أنها لن تُنقسم على الإطلاق. هذه الزاوية الوحشية هي أفضل ما فينا»^(١).

وكان طه يمر بمتعاب يعزل نفسه على إثرها، وكانت سوزان تتألم لألمه ولا تخفي عنه إحساسها بالألم والعزلة القاتمة التي كان يفرضها على نفسه، وعن إحدى الفترات السوداء التي مرّ بها الزوجان وحال بينهما ما سماه طه (بالشيطاني) وتحدثت عنه سوزان: «كان تيساً بسببي فقد وقع نتيجة الإرهاق والمرض والوضع الفاجع وتمسكه في عزل نفسه عن الناس فريسةً لإحدى الثوبات السوداء المخيفة التي ما أكثر ما عرفتُها! كان إذ ذاك يحبس نفسه وراء حِصن شرس مخيف، كما لو أنه سقط في أعماق حفرة لا يستطيع أي شيء على الإطلاق أن يتزعه منها»^(٢).

وكانت سوزان تتأثر بشدة بما يحدث له، كما في قولها: «كانت حياتي تبدو لي قد توقفت، وانسحقت بلا أمل في مواجهة عزلة مطلقة يفرضها على نفسه، ورفضه العنيد سماع أقل كلمة تحاول معونته. قلت له يوماً: لماذا تبعد نفسك عني؟! فكانت هذه الكلمة مثار الأزمة. كنت أنا الأخرى كنيية؛ فقد كان يبدو ظالماً قاسياً، ولا شك أنني كنت أنا الأخرى مثله أيضاً»^(٣).

وهنا يعود طه فيكتب لها: «أكان عليّ أن أتألم في حبي لك أيضاً، إننا نؤلم بعضنا كثيراً. ولم أتصور على الإطلاق أمراً على هذه الدرجة من الشيطانية يسه أن يتدخل فيما بيننا. فلنرحم أنفسنا. إن أقل شيء يمُسني

(١) مذكرات، ص ٦٤.

(٢) نفسه، ص ٩٧.

(٣) نفسه.

يزلزلك أنتِ، أنتِ معنى حياتي، إذن ما الذي يحدث لنا؟! اطلوبني في جناحك كما كنت تفعلين دوماً فقد أبادتني رسالتك»^(١).

ولم تكن سوزان وحدها من تشعر به وتتفهمه، فقد كان يبادلها نفس التفهم، كما في قوله لها عند هبوب الرياح: «الرياح تعوي؛ ما أشد انحراف مراجعي! كنت تقول لي: (أنتِ تتألمين عندما تكون الرياح شديدة). نعم»^(٢).

وكما شاركته سوزان حياته الأسرية، شاركته حياته الثقافية، فكانت تُلقِي كلماته في المؤتمرات، وتعيّنه في ترجمة ما يحتاج إليه من نصوص، آخرها كان ترجمة كتاب الأيام إلى الفرنسية، بل كانت تعني حتى بالمكان الذي يجلس فيه، كحديثها عن الصنوبرية التي زرعتها من أجله، واهتمامها بالبيت حتى خيّر لها مازحاً ذات مرة بين إهدائها جوهرة تزين بها صدرها أو علقم أواني منزلية.

وكان هو بالمقابل وعلى فقدانه البصر وضعفه في آخر أيامهما معاً، يساعدها قدر استطاعته، تقول سوزان: «ما أكثر ما كان طه يمسُّ شغاف قلبي في تلك السنوات الأخيرة! فعندما كنا ننتزه على ضفة (الفيرس) أراد أن يحمل محفظتي بأي شكل مثلما كان يفعل في السابق لمساعدتي، بما أنني لم أكن أملك سوى ذراع حُرّة واحدة، إلا أنه عندما كان يتوجب على ذراعي اليسرى أن تسند ذراعه اليمنى أيضاً، لم يكن ممكناً أن يحملها فضلاً عن أن ذلك كان يسبب له إرهاقاً كبيراً»^(٣).

(١) معك، ص ٩٨

(٢) نفسه، ص ٣٩.

(٣) نفسه، ص ١٧٤.

وكان يحرص على تهيئة البيت مع الخدم لاستقبالها بعد عودتها والأولاد من السفر، وكانت سوزان تشكر له هذا الفعل وتراه تعبيرًا لطيفًا عن عفوية الحب، مستحضرةً عبارة ميشيليه: «الحب العفوي أرفع تعبير عن الحنان الإنساني»^(١).

كانت سوزان لا تتحدث عن إنجازات طه وتقف، بل تتحدث عن أحزانه أيضًا، عن فقدته الأصحاب واحدًا تلو الآخر، وما كان يثيره الفقد في قلب طه من آلام، وعن المكانة المتدنية التي كان يحتلها طه في أسرته بوصفه أعمى، وأخذ يكرر التحدث عنها آخر حياته، ثم لا يلبث أن بصمت ولا يكمل حديثه، كقوله: «كنت أقل الجميع اعتبارًا بنظر أسرتي»^(٢).

كانت سوزان وهي تكتب وتنقل لنا رسائل طه وتتحدث عن آلامه، لا تخفي العبء الجارح الذي تفرضه عليها هذه المهمة، فتقول: «هل أستطيع أن أمنع نفسي من البكاء وأنا أنقل هذه الكلمات؟ لقد كان هذا القلب يستحق كل سعادة الأرض لو أن السعادة كانت توهب لمن يستحقها»^(٣).

وتحدثت سوزان مرة بعد أخرى عن تباعد الناس عن طه قبل موته، وكيف أعدت له مكانًا بجانب غرفته، ليجتمع مع أصدقائه الخُلص الذين ثبتوا على الود ولم ينقطعوا عن زيارته.

وعن اهتماماتهما المشتركة، بما فيها تسليةتهما، ذكرت سوزان كيف حاولت الترويح عن طه فعرفته بالسينما الناطقة، وكيف كانا يقرآن معًا،

(١) مذك، ص ٦٩.

(٢) نفسه، ص ٢٢٦.

(٣) نفسه، ص ٩٨.

ويتشاركان الاستماع إلى الموسيقى، وتغريد الكروان في حداثتهما المختلفة، إذ كان هناك أيضًا تغريد الكروان الذي كان يؤثر في طه كثيرًا^(١). ويسميه صديقه، وكيف كان يستمع إلى تعريده وهو يكتب رسائله إليها.

وعن الأماكن التي جمعتهم وما تثيره زيارة تلك الأماكن من شجون، تحدثت سوران طويلاً، وفي مواضع متفرقة، من كتابها، وكانت سوزان مثلها مثل جوان ديديون، تفكر عندما تمر بتلك الأماكن التي زارها معًا فيما لو علم به طه لأسعده، إذ قالت: «أثار انتباهي أمر لم أكن لأتوقعه، ففي نهاية طريقنا تقريبًا، وفي قلب منطقة مقابر البساتين أثارنا ضجة فرحة وصاخبة. كانت تلك ضجة وصخب التلاميذ الذين كانوا يمرحون في استراحة ما بين الدروس؛ فقد أقيمت هناك مدرسة حديثة، ودمعت عيناى، لكنني ابتسمت على وجه التأكيد؛ فلا بد أن ذلك كان سيجعل طه مسرورًا»^(٢).

هذه الرابطة الوثيقة بين قلوبهما هي ما كانت تسميه سوزان الحب السري، فنقول: «بعد رحيله، بثُّ أشعر أنني متزعجة نهائيًا، لا من كل ما يخصني وإنما من كل ما يخصنا أين ذلك الحب السري الذي ربطنا إلى بعضنا باستمرار سواء أكنّا معًا أو كنا مفترقين؟»^(٣).

وقد عذبت سوزان لحظاتها الأخيرة معًا وصوته وهو يناديها أن تعود أثناء مرضه (عودي، عودي). أما ما بقيت سوزان متعجبة منه عند تذكرها للحظة موته، هو الهدوء العجيب الذي تملكها تلك اللحظة،

(١) معك، ص ١٠٢.

(٢) معك، ص ١١٥.

(٣) معك، ص ٤١.

وكما هي حال أخريات لم تتمكن سوزان من البكاء لحظة الفقد؛ إذ قالت: «لم أكن أبكي، جاءت الدموع بعد ذلك»^(١)، وعلى مدى صفحات الكتاب تدفقت كلماتها بوجع الفقد كقولها: «يقلقني عجزى عن إعادتك لقربي، أعرف أنك تحيا، ولكن، أين؟ كيف؟»^(٢)، وتحدثت بمرارة كيف عاشت بعد فقد، كتمثال متحرك!

وعندما مرّ وقت على رحيله، ويفترض أن تكون قد تحررت بعده من أحزان الفقد، كانت تحاول الظهور بمظهر الهادئة، وتقول: «إذا بكيت فإنما أبكي غيابك الذي لا دواء له، وربما كنت أبكي حياتي التي بت لا أتعرف عليها»^(٣).

وكعادة الذكرى حين تهجم علينا دون استدعاء أحيانا، وصفت سوزان شعورها عند سماع صوت طه في المقابلات بعد موته، وما تثيره الصور في نفسها، ورغم أنها قالت إنها لا تحتاج الصور لاستعادته، فقد ذكرت أنها تحب صور سنواته الأخيرة، إذ قليلاً ما كان يبدو عليه الضيق فيها، وتكره تلك التي كان يظهر طه فيها وهو يُحتمل من السيارة، وودّت لو تمزقها.

وبعد أن كانت سوزان يدهُ التي يتوكأ عليها: قالت: «نحن في عام ١٩٧٥ وقد أصبحت اليد التي كانت دليل طه فارغة»^(٤). وبقي يتردد داخلها ذلك التساؤل الذي يحركه الحنين إليه: «لماذا لا تكلمني يا حبيبي؟ منذ صباح أمس وأنا أناديك بيأس»^(٥).

(١) معك، ص ٢٩.

(٢) نفسه، ص ٢٧.

(٣) نفسه، ص ٢٢٧.

(٤) نفسه، ص ٣٧.

(٥) نفسه، ص ١٨٠.

وعن استدعاء الذكريات ولماذا نحتاجها، كتبت سوزان كلمات تذكرنا بكلمات جوان ديدون عندما تساءل: لماذا نحاول أن نبقى موتانا أحياء؟ فتقول سوزان: «إننا نتكئ على الذكريات؛ إذ لما كنا نستشعر حاجة عميقة لثلا يموت أولئك الذين أحببناهم، فإننا نبعثهم عبرها ثانية، ولكيلا يتخلوا عنا، فإننا نجعلهم يشاركونا حياتنا المستمرة. وإنه لو هم آخر أيضًا! فالحياة تتغير كل لحظة، كما أنهم يبقون غرباء عنها... وإنه لمن العبث، بل لمن الغرارة، إن لم أذكر العمر الذي بلعته، أنني لا أحب الثياب التي لم تكن الثياب التي كنت ألبسها إذا كان حيا»^(١).

لهذا كانت سوزان تحترم الذكرى وتستدعيها باستمرار وهي تعود إلى الأماكن التي كانا فيها معًا، كما في قولها: «أستطيع أن أضع في عداد الأفراح النادرة، تلك الأفراح التي منحناها له الطبيعة؛ فعلى امتداد ذكرياتي، هناك غابات ومروج وبحيرات وجبال وسهول وبحار، كانت بعض المناظر عزيزة علينا وأليمة إلى أنظارنا بحيث كانت تبدو وكأنها ملكنا في لحظات الغبطة، فنقف ونطيل الوقوف أمامها، كنا نلقاها بفرح كما لو كنا سنلقى أصدقاء أعزاء، وهذا هو السبب في أنني أحاول أن أستمّر في الذكرى ماضية إلى لقاء بعض هذه الأماكن التي كان فيها سعيدًا»^(٢).

ورغم أنها قصت التاريخ الذي تحتفظ له بمكانة خاصة مع ابنها مؤنس وأسرته، فقد شق عليها أن تعيش أول تاسع من أغسطس بدون طه، وهنا تفصح سوزان عن خوف تملكها: «للمرة الأولى منذ سنوات، ركبتُ القطار، وعندما اختفى وجه مؤنس العزيز في محطة مونتر و شعرت ببعض الدهر (كنت وحيدة، غير شابة، وغير سعيدة).. ما أكثر السنوات

(١) معك، ص ٢٣٥.

(٢) معك، ص ٢١٤.

والمرات التي مردنا بها هنا! وما أكثر الأفراح التي عشناها! وما أجمل ما كانت عليه غبطة الأطفال! (١).

وهنا ومثل جوان تفكر سوزان بأولئك اللاتي عشنَ فاجعة فقد الزوج والحبيب، فتقول: «أفكر - وما أكثر ما أفكر - في النساء اللواتي غدون وحيدات وهنَّ ما زلن في ريعان الصبا، أفكر في كل مالم يعرفه الرفيقُ الراحل الذي سيتسع دون توقف... آه! أعرف جيدًا أن أولئك الذين تحابوا يتواصلون على نحوٍ آخر، لكن الأمر مؤلمٌ بعد كل حساب» (٢).

وعن فقدان المعنى بعد موت طه وأدائها لرسالتها تجاه أسرتها، تقول: «عندما يكون أطفالنا يحتاجون إلى الرعاية والتربية، أو مهنة. أو مهمة تتطلب المتابعة وقوى جسدية للقيام بها؛ فإن بوسعنا - ولا شك - بل إننا نعرف كيف نتدبر أمرنا حتى بعد وصول هذه المهمات إلى غاياتها، لكن ها أنا ذا في الثمانين من عمري والمهمة التي واصلت القيام بها خلال ستة وخمسين عامًا قد غدت بلا موضوع» (٣).

وعن ذراعها التي اعتادت صحبة طه، قالت بعد رحيله: «ذراعي لن تمسك بذراعك أبدًا؛ ويداي تبدوان بلا فائدة بشكل محزن، فأغرق في اليأس. أريد عبر عيني المخضلتين بالدموع حيث يقاس مدى الحب، وأمام الهاوية المظلمة حيث يتأرجع كل شيء؛ أريدُ، أريدُ أن أرى تحت جفنيك اللذين بقيا مغلقين ابتسامتك المتحفظة، ابتسامتك المبهمة الباسلة، أريد أن أرى من جديد ابتسامتك الرائعة» (٤).

(١) معك، ص ١٨٨.

(٢) نفسه، ص ٢٢٥.

(٣) نفسه، ص ٣٩.

(٤) نفسه، ص ٢٣٣.

وعن الارتباط بالمكان وعلى عكس جوان التي كانت تتحاشى تناول الطعام في الغرفة التي سقط فيها زوجها جون سقطته الأخيرة، كانت سوزان تتناول طعامها في المكان نفسه الذي لفظ فيه طه أنفاسه الأخيرة، فتقول: «إلى هذه الغرفة، غرفتك، أحمل صينية غدائي. أولم تكن تتناول على هذا النحو وجباتنا طيلة ثلاثة أعوام؟... تبدو هذه الغرفة وكأنها تحملك شيئاً ما... ففيها تم أكبر سرٍّ، سرُّ الموت، أمِنَ الممكن أنه لم يبقَ من هذا السر شيء؟ كل شيء يزغزغي، كل شيء يختلط، يتشابه... يتزعني من الحاضر؛ أنا ضعيفة إذن؟ أأنا عاجزة عن مواجهة الفراغ والأيام الخوالي؟... كنت صلابتي، كنت تحميني، وها أنا ذي ملا دفاعاً»^(١).

كانت علاقة سوزان بطله من العلاقات التي ظهرت فيها غيرية المرأة بشكل كبير، وظهرت معها ما يسمى في الفلسفة النسوية بأحلاق الرعاية، مع ملاحظة موقف سوزان المختلف عن الثنائيات النسوية، فلم تتلوث علاقة سوزان بطله بتلك الثنائية الضدية بحسب ما ظهر لي أثناء القراءة.

وقد استطاعت سوزان أن توقف الفارئ على الرابطة الروحية الباقية بين الزوجين بعد الفقد، على الحاجة المستمرة للوقوف على الأطلال، والاعتبات على الذكريات، وعلى الزمن الذي يحتفي عندما يحضر الحب كما في مشاعرها عند قراءة رسائل طه بعد كل تلك السنوات، وتلاشي الزمن لحظتها.

مع ملاحظة ظهور الروح الديني في كتابها منذ صفحاته الأولى، وعلى امتداد الكتاب، وتمثل هذا في اقتباساتها من الكتاب المقدس، فقد كانت سوزان تستند إلى قاعدة دينية، تمثلت في خلفيتها المعرفية

(١) معك، ص ٢٣٦.

وعلاقتها الممتدة مع القساوسة ورجال الدين المسيحيين، وقد ظهرت هذه القاعدة بوضوح في ثانيا الكتاب. مع تمسكها بما سمته بالتسامح الإسلامي وسخريتها من وصف المسلمين بالمتعصبين، وقد أثر الروح الديني في المهمة التي نذرت لها سوزان حياتها واستصحبها حتى اللحظة التي شرعت فيها بتدوين أيامها مع طه، كما أثر في نظرتها للمفقد فلم يكن يأسها متطرفاً، كما حزنها.

فلسفة النفس الواحدة عائشة عبد الرحمن وأمين الخولي

طيفك المائل يعدو خطوتي
نحو مثوى لك، دان، وبعيد
هاتفًا أن أحتمي في وحشتي
بيقين الملتقى، خلف السدود
لحظة تأتي فتنتهي معني
بالتنام الشمل في دار الغلود

بنت الشاطئ

سُطّرت عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطي - سيرة ذاتية بعنوان (على الجسر: بين الحياة والموت) تبدو لأول وهلة طوائفاً متصلاً حول زوجها الدكتور أمين الخولي، وكأنّ حياتها على اتساعها وتنوعها تمحورت حوله فقط؛ إذ كل المسارات قادت بها إليه في دنيا الناس، وظلّت تقودها إليه في معراج الأرواح.

تأملُ هذا المعنى فالفيتة في كل ما كتبه المؤلفة شكلاً ومعنى، ألفيته في بُنية الكتاب، وتقسيم الفصول، وتأويلاتها لأحداث حياتها، فقد رتبت عناوينها وفق تسلسل سردي ينتهي بالزوجين معاً: (قبل أن نلتقي، في الطريق إليه، في منطقة الضباب، ظلال وأصواء، موعد معي، اللقاء، معاً على درينا الواحد، ثم مضى وبقيت، دنيانا بعده).

وفي العناوين التي صاغتها عائشة وتأويلها لأحداث حياتها تظهر

نزعته الصوفية، في أسلوب عرفاني يتجلى معه مغزى أحداث قصتها تدريجيًا لتكتمل بقاء الروحين في النفس الواحدة، قصة يغيب فيها أي حديث عن الطابع الحسي للجمال، فلا جمال عدا جمال الروح، والروحي فقط هو ما هيمن على كتابتها من أولها إلى آخرها.

وتصف عائشة هذا بقولها: «كيف سارت بي الحياة قبل أن ألقاه؟ في ذاك الفصل من قصتي، أعود إلى طفولتي الباكّة، فأسترجع من ذكرياتها ما لم تطوه الأيام والليالي في متاهة النسيان، وقد تبدو تلك الذكريات بعيدة عن سياق الفصول التالية من قصتنا، غير أنني أريد لأتقي بتلك الصبغة التي حملت ملامحي الأولى، وأميّز في آثار خطاها، تلك المرحلة التي أسلمتها إلى دربه من حيث لا تدري»^(١).

استهلت عائشة سيرتها بالمشهد الأخير، مشهد وداعه، وتماهت عندها البداية والنهاية، فكانت البداية ختمًا للحياة والقلب من بعده، فلم تتعرض لفكرة استئناف الحياة من بعده بالمعنى الذي يجعل الموت نهاية أحيرة للعلاقة. بل جعلت الموت طريقًا للقاء آخر، أو لحياة مستأنفة، وسأتحدث عن هذا عند تناول الفقد وسؤال المعنى في موضع آخر.

واللافت في السطور التي تناولت علاقتها بنهر النيل، وشاطئه الذي شهد خطواتها الأولى في دروب الحياة، ونخلت معها ملذّاتها الأولى، ومخاوفها الأولى، وتأملاتها الأولى على تراب ذلك الشاطئ، وفي هذه السطور يستشف القارئ أيضًا كيف بدأت علاقتها الأولى بفكرة الموت؛ فقد أحببت عائشة النيل وكتبت عن انجذابها الدائم إليه رغم تحذيرات أمها وحكاياتها المخيفة عن جنّيات النهر، وبكاء الأم أثناء تخويف

(١) على الجسر، ص ١٤.

طفلتها حتى لا تعود إليه، وتحريك موقف الأم تساؤلات الطفلة حول
البواعث الحقيقية لإبعادها عن نهرها الحبيب، لنكتشف أخيراً من مربيها
سبب خوف أمها من النهر ودموعها التي تنهمر كلما خوَّفَتْها من الذهاب
إلى الشاطئ، فقد نزلت والدتها أمها إلى النهر ذات صباح ولم تُعد قط! ^(١)

ومن تلك اللحظة، لحظة الإفصاح عن الحقيقة، أصبح لعلاقة الطفلة
بالشاطئ بُعداً آخر بدا فيه الموت قريباً، وغداً معه ماء النهر مؤنساً، كما
في قولها: «ومن عجب أن علمي بهذه المأساة وما أعقبها من ذبول
فاجعة، لم يقهر حبي للنهر! بل لعله شدني إليه بوثاق لم يكن في طاقتي
أن أتحرر منه! وما لبثت أن عدت إلى مكاني الذي هجرته حيناً، أحاول
أن أتمثل منه المأساة التي لم أكن من شهودها، وخيل لي، أنني أستطيع
أن أصفي في هدير الموج إلى صدى بعيد لصوت أنسي يتصاعد من قاع
النهر، وأن أميز في مياهه تلك الدموع التي ذرقتها أُمي حين وقفت في
الأمس البعيد على الشط تنادي والدتها الغريقة، وتضرع إلى النهر أن
يردها لها، فیرتد إليها صدى ندائها وضراعتها، مجهذاً ممزقاً ضائعاً..
وأدركت على صغر سني، سرّ الخوف الذي كان يجتاح وجدان أُمي كلما
أحست حبي للنهر وتعلقني به. وأدركت كذلك سبب ارتباطها العجيب
بجديها، وقد عاشا بعد المأساة بجترّان ذكرياتها المشحونة بالأسى
باللوعة، ويطلان صباح مساء على مسرحها الأليم!... على ذلك الأفق
الشجي الحزين، تفتح إدراكي وأنا أخطو إلى عامي الخامس.. ومن تلك
الكأس المترعة بالشجن المرّ والحنان الدافق والعاطفة المرهفة، عرفت
مذاق الحياة أول ما وعيت» ^(٢)

(١) على الجسر، ص ١٩

(٢) نفسه، ص ٢٠-٢١.

ومنذ ذلك الحين ارتبطت عائشة بعلاقة مع خيالات الراحلين، الذين لم يعودوا راحلين على الحقيقة، فتقول: «ومن تلك الشخصوس الحية التي تقف بالأطلال، بدأت ألتقط خيوطاً خفية من ذيول المأساة، ثم أنسلل إلى النهر كلما وجدت سيلاً إلى الإفلات من الرقابة المفروضة علي، فأمصى الساعات الطوال صامتة على الشط، أنشئ ما جمعت من خيوط، وأحاول أن أنسج منها ما غاب عني من مشاهد، في تأمل مستغرق وشجو مريح»^(١).

وبعد أن أسهبت في سرد نضالها الطويل للدراسة في المدارس النظامية، رغم رفض والدها لذلك، وحرصه على تلقيها للعلوم الإسلامية بالطريقة المشيخية، وخوفه عليها من إغواء المدينة إن هي انتقلت إليها للدراسة أو التدريس، وتغلبها على كل ما اعترضها من صعوبات، أكدت عائشة أنها لم تكن لثعرض علاقتها بوالدها لخطر التصادم بين رغباته وطموحاتها: «كنت أوتر أن أموت ولا أعصي له أمراً في السر أو العلن»^(٢).

وتابعت بعد ذلك الحديث عن دخولها الجامعة وكيف جمعت أمرها وقررت التقدم للتسجيل، ولما كان القبول يعتمد على رأي الأساتذة فقد قرأت حضور دروسهم وإثبات نفسها، وكانت تنوي التغاضي عن حضور دروسهم في العلوم الإسلامية والعربية لمعرفة ما بها، معرفة تجاوزت بها معرفة أقرانها من طلاب الجامعة، فتحداها زملاؤها أن تقوّت درسا من دروس الدكتور أمين الخولي خلال الأربع سنوات الجامعية، فكانت عائشة ترثي لضعفهم، وتقابل تحديهم بنوع من الاستخفاف.

(١) على الجسر، ص ٢١.

(٢) نفسه، ص ٨٥.

وبعد قبولها في الجامعة ظلّ تحدي زملائها ماثلاً أمامها، لكنها لم تدرس على الخولي في السنة الأولى، وكانت تلمحه من بعيد، فتخال أنها تعرفه من قبل.

وفي ذلك الوقت كانت قد قطعت عامًا من رحلة الكتابة في صحيفة الأهرام الشهيرة، فعادت عائشة للجامعة عام ١٩٣٦ وهي معتلة بزمورها على زملائها ببزوغ نجمها بينهم وفوز كتابها (الريف المصري) المنشور في ستها الجامعية الثانية. وبدلاً من أن تقع في إغواء المدينة كما خشي والدها، قاومت عائشة استلاب ذاتها في المدينة، فتذكرت ما عاتت مع صاحبة إحدى المجلات القاهرية، وصمّمت ألا يتكرر لها ما حدث معها بحال: «تذكرت الحاجة التي كنت أكتب لها افتتاحية مجلتها وقد طوتني في ظلّها وهي تبارك مواهي، فشاخ قلبي الغض، واكتهلت عقليتي الصبية لطول ما تقمصت فكراً شخصية سيّدة في سن جدتي... لقد تعلمتُ درسي الأول من الحاجة بعد أن تحررتُ منها واستردت ذاتي بدخول الجامعة والكتابة في الأهرام، ولم أسمح بعدها ليثة العاصمة، ولو كانت الجامعة، أن تطويني في ظلّها وتذيب عقليتي في بوتقتها لتسلبني ذاتي مرة أخرى»^(١).

بهذه الروح وذلك الزهو وتلك الهالة التي كانت تميّزها عمن حولها في الجامعة، أخذت عائشة تستعد للقاء الخولي، وكان لقاءه آخر ما جعلها تبقى فيها، بعدما ساء لها إقحام الجامعة في مواقف سياسية حزبية. وقبل اللقاء الأول به، لمحت عائشة الخولي يحدث مجموعة من الطلاب واقتربت منه، وسمعت نبرة صوته، وفكرت متسائلة أين؟ ومنى سمعت هذا الصوت؟

(١) على الجسر، ص ١٢٠.

وبعد أن كانت تلمحه من بعيد دون أن تسمع منه، سمعت كلامه آنذاك، وأعجبت به، وبينما هي كذلك سمعته يخبر الطلاب أن الدرس الأول سيكون في السادس من نوفمبر، فأدهلها ما سمعت، فقد كان السادس من نوفمبر يوم مولدها!

ولأنها لا تؤمن بالمصادفات، وأن كل ما هنالك من أحداث لا يخرج عن تقدير الله وحكمته، فقد غيّر ما سمعت تأويلها لما قد يبدو لغيرها مجرد مصادفة، وقالت: «كأنني أدركت أنني ما قطعتُ ذلك الشرط الطويل على دربي إلا لكي ألقاه في يوم مولدي... أقفُ عند نهاية المطاف أستجدي الرمن رجعةً إلى الأمس السعيد الذي ولّى وراح، وأتسولُ في غفلة حالمة تحمّلني إلى حيث أفضى بي المسمى إلى دربه في يوم ميلاد لي جديد»^(١).

لقد بدد لقاءها به كل ذلك الزهو التي كانت تحتمي به من فقدان ذاتها، وبعد أن حضرت درسها الأول معه، أدركت حاجتها الشديدة للتعلم منه؛ إذ ذكرت كيف علّمها الخولي، كيف تقرأ وتعلم، لكن الرابطة التي امتدت بينهما لم تكن عقلية محضة؛ «ومن ساعتها ارتبطتُ به نفسيًا وعقليًا»^(٢).

وهذه العاطفة المتصلة بمحبتها الأولى للعلم هي ما جعلها تُلقِي بكل دفاعاتها السابقة خلف ظهرها، وتُقبل على الخولي وقد فتحت عقلها وروحها لتلقي العلم عنه، حتى أصبحت تشعر أن عالمها أخذ يتسع ويندو أرحب وأرحب كلما جلست إليه، حتى لتضيق الدنيا عن أن تسمعه.

(١) على الجسر، ص ١٢٣، ١٢٨.

(٢) نفسه، ص ١٢٩.

هكذا تسلسل سرود المؤلفة لسيرتها المتمحورة حول زوجها، لكن مهلاً.. فلم يكن تمحورها حوله من منطلق الانفصال بينهما بل من منطلق الوحدة، ولذا، عادت لتحدثنا عن إجابتها عن السؤال الذي طرّق ذهنها بالحاح أول ما رأت الخولي وسمعت منه: «عرفتُ أين عرفته؟ إنه اللقاء الذي تقرر في ضمير الغيب منذ أن خلقنا الله من نفس واحدة وخلق منها زوجها»^(١).

ولأنها لا تؤمن بالصدفة، فقد تمكنت حتى كتابتها لهذه السيرة بأنها لم تكن لتخطئ الطريق إليه، فمن منظور النفس الواحدة، من هذه الحقيقة القرآنية الثابتة انطلقت عائشة وانتهت، وما هي ذي تقول: «ومضى العمر كله، وما كفت عن التساؤل أكان يمكن أن أضل طريقي إليه فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟ وحتى آخر العمر لم يتخلّ عني إيماني بأني ما سرت على دربي خطوة إلا لكي ألقاه.. وما كان يمكن أن أحيّد عن الطريق إليه وقد عرفته في عالم المثل ومجالي الروى وفلك الأرواح.. من قبل أن أبدأ رحلة الحياة»^(٢).

وفي ضوء هذه الحقيقة أخذت تُفسّر أحداث حياتهما معاً، انسجاماً وتنازلاً، في ساعة الصفر وساعة الكدر، فتقول: «وكنا أحياناً نتخاصم! وربما مرّت علينا فترات مغاضبة يحسبها أهلونا وأصدقائنا من لهفة الحب، ودلال العاشقين، ويلمح فيها أرهفهم حثاً وبعث الضرام المتوهج في أعماقنا يتلمس متنفساً! دون أن يتصور أحدهم أن المخاصمة أو المغاضبة ليست إلا صراعاً حتمياً بين جوهرنا الواحد، وبين الثنائية المزدوجة التي يفرضها علينا واقع الحياة وقانون المادة وأوضاع الدنيا»^(٣).

(١) على الجسر، ص ١٣٩

(٢) ص ١٤١.

(٣) ص ١٤١.

وفلسفة النفس الواحدة فسرت الفقد وحدثنا عن لحظته الأقسى:
«وشهدته بعيني مسجى على فراشه، ليس بين حياتنا الدافئة المخصبة الفتية
السخية وبين هذا الموت الهامد إلا نبضة من قلبه الكبير.. لم تستغرق
جزءاً من ثانية، وخفقة من نفس واحد لا يكفي لإطفاء عود ثقاب.. وعلى
عيني اقتحم ناس غرباء مخدعه ليجهزوا جسده للرحلة الأخيرة.

وعلى عيني حملوه من دارنا إلى غير عودة، ومضوا به إلى قريته في
ريف المنوفية، فدفنوه في ترابها الذي منه جاء، وإليه المآب»^(١).

وتحت عنوان (ثم مضى.. وبقيت أ) تماهت النهاية بالبداية كما
تماهت البداية بالنهاية، وجاشت أحاسيس عائشة لتعضي بأمنيات اللقاء
بعد الفراق، فتقول: «هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة
لمسماي إليه ولقائي به، لتؤنس وحشة الفراق إلى أن يحين الأجل فألحق
به ويلتئم الشمل مرة أخرى في عالم الروح.. أسفاً كل ما مضى انتقل
إلى منطقة الأحلام فلا سبيل إلى استرجاعه إلا في غفوة مختلسة، لا
تلبث أن تبدد بيقظة مروعة تسلمني إلى قبضة الواقع حيث المشهد
الفاجع من قصتنا التي كانت أسطورة الزمان.. لقد مضى وبقيت.. ورأيت
بكل جلاله وشموخه وكبريائه وفتوته يرحل عن الدنيا حين لم يعد له
على أرضنا مكان..»^(٢).

لقد تمكنت عائشة من تصوير مشاعر الفقد بأقوى ما ملكت من بيان،
وقد وهبت قلمًا جرت معه كلماتها كنهر تتدافع تياراته بقوة لا تدع لقارئ
أن يكبح معها جماح شعوره، رغم ما أشبعته من تأملات في المبدأ

(١) على الجسر، ص ١٤٥.

(٢) نفس، ص ١٤٦.

والمصير، لكن بناء عائشة لفكرة النفس الواحدة المستلهمة من القرآن، تتقاطع - فيما بدا لي - مع نظرية المثل عند أفلاطون، ورغم أن عائشة نفت ذلك نفيًا قاطعًا، ورغم أن فلسفتها لمفهوم النفس الواحدة القرآني لا تتطابق مع نظرية المثل، فيظل بينهما خيطًا جامعًا، ففي نظرية المثل تظل النفس تبحث عن مثالها في عالم المثل حتى تلتقاء، وهكذا صورت عائشة قصة التقائها بالخولي ضمن سرديّة شعرية لنفس تجد نفسها الأخرى فتوحدان في نفس واحدة، وهذا الاجتماع والتوحد يتم في (مجال المثل ومجال الأرواح) كما نصّت فيما نقلنا عنها من اقتباسات.

ولا يبعد أن عائشة استعارت الفكرة (الكيان الواحد الذي يضم كيائين) من كلمات طه السابقة لسوزان، خاصة وأن الترجمة العربية الأولى لكتاب سوزان، صدرت عام ١٩٧٩ م، في حين صدر كتاب عائشة عام ١٩٨٦ م، ولا يخفى ما قد يحدثه السابق من أثر في اللاحق، على أن طه لم يفجر المفكرة بمثل ما فعلت عائشة، ثم إن طه كتبها خارج إطار الفقد الدائم (الموت) أي في سياق الفقد المؤقت (السفر) بخلاف عائشة، التي نقلت المفكرة من مجال الفلسفة إلى مفهوم النفس الواحدة في القرآن وجذرتها في مفهوم اتسلاف الأرواح واختلافها في السنة النبوية، ورؤيتها بمشاعر الوجد والفقد، فجاءت على نسق فريد ومتناسك فُتِرت فيه عائشة ما كان بين الزوجين قبل اللقاء وبعده، وقبل الموت وبعده، بل حتى ما كان يقع بينهما في لحظات الصفاء أو الخصام. ورغم هذا فلم تتعدّ عائشة في تشريحها للفقد أوجاع الغياب، وإكراهات البقاء، وأمنيات اللقاء..

وليس هذا بمستغرب فغاية الكتاب لم تكن تشريح الفقد بل تدوين سيرة ذاتية لحياة المؤلفة التي كان الفقد أحد فصولها.

سؤال المعنى في حضرة الفقد بين جوان ديدون وعائشة عبد الرحمن

ما من عين تراقب الصفور ...

جوان ديدون

تُحرِّكنا وتؤطر كل رؤانا التفصيلية رؤية كُليَّة تدور حول المعنى، معنى وجودنا في هذا الحياة، ومغزى الوجود، وموجوداته، ومن هذه الرؤية نُفسر ما نواجهه في دروب الحياة، فقدًا كان أم غيره. وحينما يفجعنا الموت فجأة ودون سابق ترقب، يتزعزع داخلنا كل شيء ويتناثر، لتبقى الرؤية الكُليَّة وحدها معرَّة من كل ادعاء.

فصدمة الموت تكشف قباغاتنا الكاذبة، وأوهامنا عن أنفسنا، وإذا بنا نقف أمامها بخشوع وتواضع من أدرك الفارق بين الحقيقة والوهم. وفي الصفحات الآتية سأتناول سؤال المعنى في حضرة الفقد من زاوية نظر امرأتين مختلفتين رغم كل المشتركات بينهما، لعل في حديثهما ما يوضح إلى أين يقود هذا السؤال (سؤال المعنى) من فقد عزيزًا؟ كيف يتنظر للموت، ويُفسره؟ كيف تبدو له الحياة بعد فقیده؟ وكيف يواصل العيش بدونه؟ وإلى أين ينتهي به هذا العقد؟

عن جوان ديدون وعائشة عبد الرحمن أكتب، وسأكتفي باستعراض وتحليل ما كتبه كل واحدة منهما عن العقد من هذه الزاوية، وأبدأ بجوان التي كتبت بصراحة فائقة عن الفقد من ناحية الفجوة بين ما كنا نعرفه عن

الموت وما نشعر به لحظة وقوعه وما يلي تلك اللحظة، كما في قولها: «نتوقع أو نعلم أن شخصًا ما من أعزائنا قد يموت، لكننا لا نفكر في الأيام والأسابيع التي تعقب هذا الموت المتوقع... ربما نتوقع أن نتعرض إلى صدمة تُخل بتوازننا إذا ما حدث هذا الموت فجأة. لكننا لا نتوقع أن تكون هذه الصدمة مدمرة ومخلخلة للعقل والجسد في آن معًا»^(١).

أما المرحلة الأشد صعوبة فتعقب الأيام الأولى من المفاجعة، فمرحلة ما بعد مواراة الفقيء القبر هي المرحلة التي يزول فيها الألم المُخَدَّر بمعونة من كانوا يشملوننا برعايتهم زمن المراء، فنحن لا ندرك معنى الفقد وجمامة الحدث، إلا عندما نحياه بعدما يتفرق المعزون من حولنا، وهنا تفسر جوان ديدون ذلك الألم الذي لا يُدرك إلا ويتجرع معه فقدان المعنى فـ «هنا يكمن جوهر الفرق بين ألم الفقدان كما نتخيله وألم الفقدان كما هو في الواقع، ذلك الشعور اللامتناهي بالغياب الذي يأتي بعد ذلك.. ذلك الشعور بالخواء بأننا نقيض المعنى بكل تمامه، تلك الاستمرارية عديمة الرحمة للحظات التي نعيشها من خلال اللامعنى بكل قسوته»^(٢).

ولأننا نستمند إجاباتنا من رؤية كامنة للوجود، فلا نزيد عن أن نستمند مما كما قد اخترناه في وعينا من معنى، وهنا تذكر جوان أنها عانت من فقدان المعنى منذ طفولتها، ولم تجده في الأماكن التي تمنحه لها باعتبارها مسيحية، لكنها وجدته في علم طبقات الأرض (الجيولوجيا)، فتقول: «وأنا طفلة فكرت كثيرًا في اللامعنى الذي بدا لي في ذلك الوقت الصفة

(١) عام التفكير السحري، ص ١٣٧.

(٢) نفسه، ص ١٧٤.

السلبية الأبرز في الأفق. بعد عدة سنوات من الفشل في العثور على المعنى في أكثر المواقع التي يُنصح بالذهاب إليها للعثور عليه، علمت أن بإمكانني الحصول عليه في علم طبقات الأرض، ومكتني هذا بدوره من العثور عليه في الدعاء الكنسي^(١).

ومع ذلك فالمعنى الذي وجدته كان من الهشاشة بحيث انتهت تأملاتها في علم طبقات الأرض إلى اللامبالاة، أي بنفي العناية الإلهية عن هذا الكون، كما في قولها: «ما من عين كانت تراقب العصفور. ما من عين كانت تراقبني. كما كان في البداية، وكما هو الآن، وكما سيكون دائماً»^(٢).

وحينما لم تستطع جوان العيش دون معنى تُضيفه على حياتها، فقد بحثت عنه في كل تفصيل من تفاصيل الحياة، فذكرت كيف كانت تفتش عن المعنى وتضيفه على حياتها العائلية بعد الزواج من خلال طقوس الاهتمام والرعاية التي كانت تقدمها لعائلتها، تلك التفاصيل البسيطة التي سقت من خلالها لإسباغ المعنى على الأشياء وسمتها بالفتات، مستلهمةً تسميتها من كلمات إيليو، وحول هذا كتبت: «(هذا الفتات الذي دعمتُ به أطلالي) كانت الكلمات تتردد في رأسي حينها. هذا الفتات يعني، هذا الفتات هو ما آمنتُ به. لم تبدُ قدرتي على إيجاد المعنى في الطبيعة الشخصية المكثفة لحياتي كزوجة وأم متعارضة مع إيجاد المعنى في اللامبالاة الهائلة لعلم طبقات الأرض»^(٣).

(١) هام التفكير السحري، ص ١٧٤.

(٢) نفسه

(٣) نفسه، ص ١٧٥.

على أن تمسكها بغلالة وإن رقيقة من المعنى تُخلف بها الأحداث،
لم يُمكنها من رؤية أي حكمة أو غاية أو فكرة مضيئة خلف الفقد، ولذا
قالت «لا يمكنني أن أرى الجانب المشرق فيما حدث»^(١).

إن الرؤية التي رسختها العقلانية الحدائية تركت أثرها على الإنسان
الذي ظل يتخيل أنه يمسك بمقاليد كل شيء، وقادر على السيطرة على
كل شيء، وأنه وحده المسؤول عما يحدث من أقدار وليس الحظ السيئ
أو أي تفسير غيبي أو ما وراثي، وحول هذا الشعور بالذنب تجاه الموت
كتبت جوان: «لم أكن على يقين من أن (الحظ التعس) لم يكن له أي
دور في موت جون وطرح كويتانا-ابنتها المتبناة- في الفراش وحسب،
بل كنت في الواقع أؤمن بعكس ذلك تمامًا.. كان يجب أن أكون قادرة
على منع كل ما حدث.. هذا ما كنت أؤمن به! لم يكن قد خطر لي أن
ثمة جانبًا معينًا لم أكن أحمل نفسي المسؤولية فيه إلا بعد رؤية ذلك
الحلم التي تركت في وحيدة في مدرج مطار سانتا مونيكا. كنت أحمل
المسؤولية لجون وكويتانا، فرق كبير لكنه لم ينجح في إيصاله إلى أي
مكان»^(٢).

ولأن فكرة الحياة الآخرة منقّية، ولقاء ما بعد الموت مستبعد لدى
جوان، فقد كانت تنقري بالذكري والوجود المتخيل لفقيدها، ومع ذلك
فلم يكن هذا ليمنحها أملًا باللقاء، بل كما قالت: «كان استجداء حضوره
في كل مرة يعزز شعوري بذلك الصمت الأبدي الذي بات يفصل بيني
وبينه»^(٣).

(١) عام التفكير السحري، ص ١٧٥

(٢) نفسه، ص ١٦٠.

(٣) نفسه، ص ١٨٠

ومن اللوذ بكلمات جون ووصاياها لها، والمعنى الذي ظنت أنها قبضت عليه في علم طبقات الأرض والذي يكرّس اللامبالاة بما يحدث في الكون، ختمت جوان كتابها بكلمات جون لها، والمعنى الذي شكّل رؤيتها منذ سطورها الأولى في الكتاب وانتهت به سطورها الأخيرة، فكتبت: «يجب أن تشعرني بتغيّر الموجة. عليك أن تجاري التغير، أن تتغلبه، أن تتأقلمي معه. هذا ما قاله لي. ما من عين تراقب العصفور، لكن... هذا ما قاله»^(١).

وعلى الضفة المقابلة ومن رؤية مختلفة للعالم، تنظر عائشة عبد الرحمن لفقيدها الذي قضت معه عمراً عامراً بالحب، والمشاركة، والتعاضد، وكما كان جوان وجون ديديون يحترقان الكتابة، كانت عائشة عبد الرحمن وأمين الخولي يتشاركان العلم والتعليم، وكما تجرعت جوان فصوص فراق جون، نالت عائشة نصيبها من تلك الفصوص، ومثلما كانت جوان تستشف معنى حياتها بحضور جون كانت عائشة كذلك، كما في وصفها لأثر غياب الحولي فيمن بقي بعده، بقولها: «وبدت الحياة لتلاميذه أقل جمالاً ونُصرةً من بعده، وأندر شجاعة وحكمة، فكيف عساها تبدو لي، وقد كان هو نبضها وسرّها الأكبر، وكان هو الذي يعطيها قيمة ومعنى، وعلى دروب وجودنا الواحد وحياتنا المشتركة سارت خطاه تشع الدفء والنور وتفجر ينابيع الحب والخير والجمال»^(٢).

وكما لم تتصور جوان حياتها دون رفقة جون، لم تتمكن عائشة من تصور العيش بعد رفيق عمرها، لكن هذه المشتركات بين الكاتبين، تأخذ بالاختلاف والتباعد عندما تصل بهما الرؤية إلى مفترق طرق عندما

(١) عام التمكيز السحري، ص ٢٠٨

(٢) على الجسر، ص ١٤٦.

يبرز سؤال المعنى، ففي حين فقدت جوان الأمل بقاء جون، لم تفقده هائشة، فمن حيث انفجر الألم المزلزل في قلبها تبع اليقين الدافق باللقاء، وبقدرة الله المطلقة، هائشة التي كانت تؤمن إيماناً لا يتخلله ربب بعناية الله لعباده، وأقداره الحكيمة الرحيمة بهم، لم تشكُّ للحظة في خاتمة الفقد رغم الألم، فتحت عنوانها المؤثر: (ثم مضى.. وبقيت!) كتبت: «وما تصورت قط أنني أعيش بعده.. بل كان اليقين أن نتابع رحلتنا معاً إلى الدار الآخرة، وأن ليس على الله بمستبعد أن تتجلى فينا وبنا آية الكبرى فتمضي معاً كما تجلّت فينا ولنا في حياتنا الأولى، فكنا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد لا يتجزأ»^(١).

ومترعة بالمعنى انسابت كلمات ذلك القلب المكلوم الشاكر الحامد، وهو يتلمس الحكمة من المصائب، متسائلاً، ومجيباً: «كيف مضى وبقيت؟ أهو ابتلاء إيماني ببشرية الإنسان، إذ شهد الموت يفتال من كان يعطي الحياة، ويفيض عليها جمالاً من شجاعته، وحكمته وذكائه وفروسيته؟ اللهم إني ما جحدت قط بشريته، وكل بشر يموت، لكني ما توقعت أن أعيش بعده.

فهل الموت لا يرى فينا إلا اثنين لكل منهما أجله المقدر بالثواني وعمره المحسوب بالأنفاس؟

تلك إذن تجربة نكابدها فيكون منا الحيّ الميت والميت الحي، إلى أن الحق به فيلثم كياننا طيقاً واحداً في عالم الأرواح.

ألعها الحياة أمهلتنى ريثما أروي قصتنا على مسمع الزمان تفسيراً لأية الله العظمى في خلقنا (من نفس واحدة، وخلق منها زوجها)؟ أم

(١) على الجسر، ص ١٤٦.

لعله القدر أراد أن تكتمل معاناتي لتجربة الحياة فأبلى حزنها الأكبر كما
بلوت نعمتها العظمى وفرحتها الكبرى^(١).

وإن كان لي من تعليق على ما قالته عائشة، فهو إن الأمل باللقاء في
الآخرة هو ما يبقينا أحياء في حقيقة الأمر، وكما قال أبو الوفاء بن عقيل:
«لولا أن القلوب تُوقن باجتماع ثاني، لتفطرت المرائر لفراق المُحِبِّين»^(٢).

(١) على الجسر، ص ١٤٦.

(٢) المتظم، لابن الجوزي، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ج ٩ / ص ١٨٧.

نهايات ..

حين تُفصح الحياة عن كل ما لديها
ولم يُعد فيها ما يثير الدهشة .. الرقب
الفضول أو الفرغ
تأتي الآخرة لتُضي عليها المعنى
وتعيد تعريف أشيائها من جديد

ملاك الجهني

يقول محمود درويش: لا أريد من الحب غير البداية!

ويتغنى كثيرون بفتنة البدايات في العلاقات، ولا أجد في البدايات
ما يجده الآخرون من فتنة ولهفة وجمال، بل سطحية المعرفة بالطرف
الآخر، والبريق قصير العمر لفضول اكتشاف الآخر، وكل ورطات
الارتطام بتواءات شخصيته المجهولة.

وعلى العكس تمامًا يشدني عمق ما بعد البداية وجاذبيته وجذور
العلاقة التي تزداد إيقالاً وتشبهاً بالحياة كلما اشتد العطش وحاصرتها
عوادي الدهر.. فلا قوة تقدر بعدها على تفكيك أواصر الألفة أو تعيد
فصل واستعادة ما انصهر منّا في المناطق المشتركة مع الطرف الآخر.

وهذا ما اجتمع في كتابات الزوجات عن الأزواج، وعن تلك الحيوانات
المزهرة رغم الأشواك ورغم الغيم ورغم العصف ورغم الفقد.. وهذا
ما يفسر امتداد تلك الحيوانات واستمرارها بالحضور رغم فقدان أحد
طرفيها.

ويُفسر تضاعف ألم فقدان ومقاومته الزمن والنسيان، وإن لم تخلُ حياة صاحبه من صفو اليقين، والإيمان والرجاء بقاء جامع في حياة خالدة.

ولما كان الوجدان لا يخضع لسلطة العقل خضوعاً مطلقاً؛ فلا أجدني أتفق مع ما قيل من أن: «العقل يتصر على المعاناة، ولكن (المتألمين) يرفضون تسليم مواقعهم»^(١). كما لا أتفق تماماً مع ما نقله ابن القيم رحمه الله من قول بعضهم: «من لم يصبر صبر الكرام سلا سلو البهائم»^(٢)، والذي ينتهي إلى أن الوقت يتصر على المعاناة.

فمن رحم المعاناة، وتجربة سنوات الفقد أستطيع القول: إن الإيمان وحده ما يسهل الانتصار على المعاناة مرة بعد مرة، فلا العقل ولا الوقت يحمياننا على الدوام من هجماتها الشرسة، لكن الإيمان حتماً يفعل!

(١) قبل شروق الشمس، ميخائيل زوشيكو، ترجمة: يوسف يساليوس، ص ٣٥٨.

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تحقيق يوسف بدوي، ص ٥٢.

2.

عين تراقب العصفور

في أدبيات الفقد و الحداد و الحمد



يترحل هذا الكتاب بين الذاتي والموضوعي، ويتماهي فيه الخط الفاصل بينهما، فيضم بين دفتيه سردًا ذاتيًا للكاتبة حول الوجد والفقد في تجربتها الخاصة، وتجارب كاتبات أخريات تتحاور المؤلفة مع نصوصهن حول أزواجهن حالي الحضور والغياب.

وتنظر الكاتبة إلى الفقد من حيث هو تجربة مركبة لا تنحصر في بعدها العاطفي فقط، فتتوغل في الزوايا المعتمة لهذه التجربة، والتي تخفى في سرد الزوجات، منسأة عن خفوت الكتابة حول تجربة الفقد في المكتبة العربية من منظور ذاتي لا علاجي.

وحول الأفكار الشائعة عن الحداد والنسيان، وعودة كل شيء لسابق عهده بعد الفقد، والاضطراب الذي يتسبب به غياب الفقيد لن جمعته بهم رابطة عصية على الانفكاك والتخطي، كما تتساءل حول إمكان عيش حياة جديدة بعد فقد الحبيب، وكيف يغير سؤال المعنى النظرة إلى الموت من حيث هو نهاية حياة بكاملها أو امتداد لحياة أخرى كاملة.

المؤلفة

